

في القرآن الكريم والحديث الشريف ونصوص من العربية

الدكتور محمد علي أبو حمدة

Ph. D في النقد الأدبي من جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة
M. Litt في النقد الأدبي من جامعة أكسفورد بالمملكة المتحدة
M. A. في النقد الأدبي من الجامعة الأمريكية ببيروت
(B. A., M. A.. M.Litt., Ph. D.)
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب
الجامعة الأردنية / عمان

دار عمار

المبهج

في أساليب البيان





رقم التصنيف	:	م أ/ ١/ ١٣٩٠
المؤلف ومن هو في حكمه	:	د. محمد علي ابوحمدة
عنوان الكتاب	:	البهيج في اساليب البيان
الموضوع الرئيسي	:	١ - القران الكريم
		٢ - حديث شريف
		٣ - نصوص عربية
بيانات النشر	:	عمان / دار عمار للنشر

* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١١٩٩/ ٨/ ١٩٩٨
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية ١٣٩٠/ ٨/ ١٩٩٨



دار عمار للنشر والتوزيع
عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

توطئة

الحمد لله رَبِّ العالمينَ، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمُرْسَلين، وعلى آله، وأصحابه الغُرِّ المَيَامِينِ، ومَنْ تَبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، وبعد:

فهذا الكتاب «حدائق ذات بهجة»[1] نَمَتْ عروقُ أشجارها في أصول الثقافة العربية الإسلامية، وامتدَّت منها الأغصان، وذكت أرواح أزاهيرها، وزكت ثمارها في جَوِّها (الثقافة) الرَّائق الأخَّاذ وهو (الكتاب) بَعْدُ صفحة رقراقة تتهادى على أديمها صُوَرُ البلاغة العربية في أجمل حُلَلها، وأبهى زِينتها، وأحسن معارضها.

وقد ذَلَّلت منه (الكتاب) القُطُوفَ كي يكون ثماراً يانعة في مُتناول طلبة العلم، والشَّادِين وراء الأسرار الإلهية، والمقاصد الرَّبانية، في نصوص القرآن الكريم، والسُنَّة النبويَّة المُطَهَّرة.

واللهَ تعالى أَسْأَلُ أَنْ يَكُونَ جُهدِي هذا في ميزان حَسَنَاتِي يومَ القيامةِ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشُّعراء].

---

(١) من قوله تعالى في مُحكَم التنزيل: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل].

الباب الأول

البيان واللغة

ما نكون في شأن، ولا نَخُوض في أمر، ولا نُحَامي عن فكرة، أو ننتصرُ لها، ونَحْمِلُ النَّاس على أن يَرَوْا رأينا وَيُسلِّموا بوُجْهة نَظَرِنا، ووجَاهَةِ أسبابِنا، إلاَّ وكانَ البيانُ هو أداتنا والسَّبيل.

والبيان: «علم يُعْرَف به إيرادُ المعنى الواحد، بطرق مختلفة في وضوح الدَّلالة عليه»(١).

وهو (البيان): هيئة مخصوصة من الحُسن، وذلك أمْرٌ وراءَ النَّحو والإعراب. ألا ترى أنَّ النَّحْويَّ يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور، ويَعْلَمُ مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنّه قد لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة؟!(٢).

---

(١) محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني: **تلخيص المفتاح**. ط١ (مطبعة الحلبي وأولاده. القاهرة ١٩٣٨م) ص٢١٨.

تناولنا البيان هنا في معناه الشامل خلافاً لبعض البلاغيين المتأخرين.

(٢) ضياء الدِّين بن الأثير: **المثل السَّائر** (مطبعة نهضة مصر. القاهرة ١٩٥٩م) ١: ٤٠.

يحضرني في هذا المقام مَثَلٌ من المُعاناة في الحضارة الإسلامية، وهو أبو العباس محمد بن يزيد النحوي المعروف بالمبرِّد (ت٢٨٥هـ).

يقول فيه أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) صاحب كتاب «العقد»:

«ألا ترى إلى محمد بن يزيد النحوي - على علمه باللغة ومعرفته باللسان - وضع كتاباً سَمَّاه بالرَّوضة، وقصد فيه إلى أخبار الشعراء المُحْدَثين، فلم يختر لكل شاعر إلاَّ أبرَدَ ما وجد له، حتى انتهى إلى الحسن بن هانىء.. فاستخرج له من البَرْدِ أبياتاً ما سمعناها ولا رُوِّيناها، ولا ندري من أين وقع عليها. =

وَعِلْمُ البيان لتأليف النَّظم بمنزلة أُصول الفقه للأحكام وَأدلَّة الأحكام[1].

وهو الذي يُعطي العُلومَ مَنازِلها، وَيُبيِّن مَرَاتبها[2]، وَيكْشِفُ عن

= وأين هذا الاختيار من اختيار عمرو بن بحر الجاحظ، حين اجتلب ذكره في كتاب الموالي، فقال: ومن الموالي: الحَسن بن هانىء، وهو من أقدر الناس على الشعر، وأطبعهم فيه.

وَجُلُّ أشعاره بديعة لا نظيرَ لها، فَخَطْرَفَها - تجاوزها وتعدَّاها - كُلَّها، وتَخطَّاها إلى التي جانسته في بَرْدِه، فما أحسبه لحقه هذا الاسم «المبرِّد» إلاَّ لِبَرْدِهِ. وقد تَخَيَّرَ لأبي العتاهية أشعاراً تقتل من بَرْدِها.

العقد. ت. محمد سعيد العَريان (دار الفكر - بيروت. بدون تاريخ) ٧: ٧١-٧٢.

(١) المصدر السابق والصفحة ذاتها.

وواضح من توجيه النصِّ أنَّ الفقيه لا يصل إلى درجة الإفتاء ما لم يقف على أسرار النصوص، فيعرف قراءات كتاب الله تعالى ووجوه إعجازه، وأسباب نزول آياته، وفيمن نزلت، وفي أيِّ مكان نزلت - في سهلٍ أم في جبل -، ويعرف الناسخ من المنسوخ، ودلالات ألفاظ العربية، وأساليب القول؛ مع إلمامٍ بالأحكام الشرعية، ومعرفة ما أفتى به رسولُ الله ﷺ، والخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم -؛ وبما حَكَمَ به العلماء في العصور الإسلامية المختلفة؛ وما أجمعت عليه أُمَّة محمد ﷺ، وما كان قياساً، وما كان مصالح مُرْسَلة، وما كان فَرْضاً، وما كان سُنَّةً، وما كان مندوباً، وما كان مُباحاً، وما كان حراماً، وما كان مكروهاً، وما سُكِتَ عنه والأَوْلى اتِّباعه، وما سُكِتَ عنه والأولى اجتنابه - مع استيعاب لحضارة العصر، ومتابعة العلوم والمعارف والمستجدات، والوقوف على حاجات الناس ومُشكلاتهم والتحديات التي تطرح نفسها أمامهم - في حِلِّهم وتَرْحالهم -.

(٢) هكذا سارت الحَضَارةُ الإسلامية في مَسِيرتها العملاقة، فالعالم لا يغدو عالماً ما لم يُلمَّ بالبيان والوقوف على أسراره وبعد ذلك يَنْطَلقُ في مَيْدَانِ تخصُّصه. وقَلَّ أنْ كان طبيبٌ أو جَرَّاحٌ أو فلكيٌّ مُسلم ولم يكن له نشاط في التآليف الفكرية =

صُوَرِها، ويجني صُنوف ثمرها، وَيدُلُّ على سَرائرها، وَيُبْرِزُ مكنون ضمائرها. وبه أبانَ الله تعالى الإنسانَ عن سائر الحيوان[1]. ونَبَّه فيه على عظيم الامتنان، فقال عزَّ من قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن][2].

وما سُمِعَ رَسُولُ الله ﷺ افتخرَ بشيء من العُلوم سوى علم البيان. قال ﷺ: «أنا أفصح من نطق بالضَّاد»[3].

= والثقافية تحت قُبَّة البيان الإسلامي، فالرّازي (أبو بكر محمد بن الرازي ت٩٢٥هـ) وابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله ت١٠٣٧هـ) والفارابي (محمد بن محمد بن طرخان، أبو نصر الفارابي ت٩٥٠هـ) والبتَّاني (أبو عبدالله محمد بن جابر ت٩١٨هـ) والبيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد ت١٠٤٨هـ) والخوارزمي (محمد بن موسى ت٨٥٠هـ) وجابر بن حيان أبو الكيمياء العربية - بعض نماذج على ذلك.

انظر في النشاط العلمي لهؤلاء الأعلام: فيليب حِتِّي، وإدوارد جُرجي، وجبرائيل جبور **تاريخ العرب** ط٧ (دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٦) ص ص٤٣٥-٤٥٠.

(١) يقول شهاب الدين الخفاجي (ت٤٦٦هـ): قد ثبت أنَّ الفرق الواضح بين الحيوان الناطق والصَّامت هو النطق، وبه وقع التمييز في الحد المنسوب إلى الحكيم (أرسطو).

انظر: **سر الفصاحة** (مطبعة صبيح وأولاده. القاهرة ١٩٥٣م) ص٦١.

وقال أصحاب المنطق: «حَدُّ الإنسان: الحَيُّ الناطق» ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ): **العُمدة** ط٣ (١٩٦٣-١٩٦٤م): ١: ٢٤٢.

(٢) انظر: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ): **أسرار البلاغة**. تحقيق هيلموت ريتر (مطبعة وزارة المعارف. إستانبول: ١٩٥٤م) ص٢.

(٣) وفي حديث مروي عن رسول الله ﷺ يقول: «أنا أفصح العرب بَيدَ أني من قريش». الخفاجي: سرُّ الفصاحة، ص٦٠.

وقال ﷺ: «. . . وأوتيت جَوامع الكلم»[1].

فلو لم تكن هذه من أعلى الفضائل درجة - كما يقول ضياء الدين بن الأثير - لما «اتَّصل الإعجاز بها دون غيرها، فإنَّ كتاب الله تعالى نزل عليها، ولم ينزل بمُعْجِز من مسائل الحساب، ولا مِن مسائل الطِّبِّ ولا غير ذلك من العلوم[2].

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي. كان كُلُّ نبيٍّ يُبعث في قومه، وبعثت إلى كل أحْمرَ وأسود، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طَيِّبَةً وَطَهُوراً، وَنُصرت بالرُّعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت جوامع الكلم». المثل السائر ٤ : ٤-٥.

والحديث الشريف في كتاب المساجد ومواضع الصلاة في: صحيح مسلم لأبي الحسين مُسلم بن الحَجَّاج القُشيري النَّيسابوري (٢٦١هـ) ت. محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء التراث العربي. بيروت، بدون تاريخ) ١ : ٣٧٠-٣٧١ ورقم الحديث ٥٢١.

ونَصُّه: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي. كان كُلُّ نبيٍّ يُبعث إلى قومه خاصَّة، وَبُعْثْتُ إلى كُلِّ أحمَرَ وأسودَ. وأُحِلَّت لي الغَنَائمُ ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي وجُعِلَتْ لي الأرضُ طيِّبَةً طهوراً ومسجداً. فأيّما رَجُل أدركته الصَّلاة صَلَّى حيث كان. وَنُصرتُ بالرُّعْب بين يدي مسيرَة شَهْرٍ. وأُعطِيتُ الشَّفَاعَةَ». ورقم الحديث ٥٢٣.

عن أبي هُريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بستّ: أُعطيت جَوامعَ الكَلِم. ونُصِرْتُ بالرُّعب. وأُحلَّتَ لي الغنائمُ. وجُعِلت لِيَ الأرضُ طهوراً ومَسْجداً. وأُرْسِلت إلى الخلق كافّة. وَخُتم بي النبيّون».

ووردت أحاديث بصيغ مختلفة عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ وفيها: «وأوتيت جوامع الكَلِم» صحيح مسلم ١ : ٣٧١-٣٧٢.

(٢) انظر: المثل السَّائر: ٤ : ٥.

ولسائلٍ أنْ يسأل: كيف كان رسول الله ﷺ أفصحَ مَنْ نطق بالضَّاد، وكيف =

= كان البيّنَ (جمعها أبْيناء، وَبُيَناء، وأبيان) الأوّل في زمانه.

وفي الإجابة عن ذلك نقول:

أُتيح لرسول الله ﷺ من الفُرَص - وبعضها كان ظاهره نِقْمةً وفي الحقيقة كان في طَيَّاته نِعمةً - ارتفعت به ﷺ عن أقرانه، وباعدت بينه وبينهم في مضمار الفصاحة، وشأو العربية، ناهيك عن البيان الذي يجمع إلى العربية استيعاب العصر، ومعطياته الثقافية، وطرائق الاستدلال. فأوَّلُها:

نَسَبُه ﷺ:

فهو: محمد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب بن هاشم بن عَبْد مناف(١). أمَّا عبد المطلب فَبَقِيَ حتى كَبِرَ ومات بمكةَ ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين وشهرين؛ وولد له (عبد المطلب) عَشَرةُ بنينَ وَسِتُّ بنات(٢).

وكان عبد المطلب سَيِّد العرب الذي دَخَل على أبرهةَ الحبشي وقال: تَرُدُّ عَليَّ إبلي.

قال أبرهة: «قد ظننتُ أنَّك تُكَلِّمني في بيتكم هذا الذي هو شَرَفُكم! قال عبد المطلب: ارْدُدْ عَليَّ إبلي وَدُونَك البيت فإنَّ له رَبّاً سيمنعه».

وكان هلاك أبرهة وجيشه في عام الفيل(٣).

ولمَّا كان القرآن قد نزل بلسان قُريش(٤) وهم أفصح العرب، فتحصيل حاصِل أن يكون رسول الله ﷺ في الذروة الأعلى في هذا المضمار من حيث حُسْنُ الفهم عن رَبِّه تعالى وَحُسْنُ الإبلاغ والبلاغ.

هذا، وكان يُتاح لمحمد ﷺ وهو صبي صغير من العطف من جَدِّه عبد المطلب ما لم يُتَحْ لغيره من صغار آل عبد المطلب - بحكم يُتْمه - إذ توفي أبوه عبد الله وهو في بطن أُمِّه(٥). ومثل هذا الوضع يَخْلُق من الحساسية ما يجعل سَيِّداً كَسَيِّد قُرَيشٍ يعرف معه كيف يمسحُ أحزان الصَّغير ويُطَيِّبُ خاطره.

ففي الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد أن عبد المطلب كان لا يأكل طعاماً إلاَّ قال: عَليَّ بابني، فيؤتى به (ﷺ) إليه: ١ :١١٨.

وكان ﷺ وهو صغير يجلس على فراش جده عبد المطلب فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنَّه ليؤنس مُلْكاً. الطبقات الكبرى ١: ١١٨، ١٥٢. =

= ولمَّا حضرت عبدَ المطلب الوفاةُ أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ، وحياطته. الطبقات الكبرى ١: ١١٨.

ونَسَبُه ﷺ من جهة أُمِّه. فأُمُّه ﷺ آمنة بنت وَهْب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن كعب بن لؤي. الطبقات الكبرى: ١: ٩٤-٩٥.

ومن أخواله سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن كعب بن لؤي. وهو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص. كان أحد العَشَرة المبشرين بالجنة، وأحد أصحاب الشورى. وكان أرمى الناس. ودعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم استجب دعوته، وسدِّد رميته».

وجمع له النبي ﷺ أبويه، فقال: «ارم فداك أبي وأُمي».

وقال ﷺ: «هذا خالي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خالَه». وسعد بطل معركة القادسية.

وأسلم سعد وهو ابن تِسْعَ عَشْرَةَ سنة. المعارف: ١٤٠-١٤١.

ويلتقي سعد بن أبي وقاص في نسبه الأعلى بجد رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر.

وإذا كان «ثلثا الولد لخاله» فيكون رسول الله ﷺ قد أضافت عناصر التحسين الوراثي إلى عافيته وعقله.

ونَسَبُه من جهة والدة أبيه. فأخوال أبيه عبد الله من بني النَجَّار في المدينة (المنورة)(٦). ومَنْ كان أبوه قد أغرب في النكاح من وَسَطٍ اجتماعي معروف بالحضارة والرُّقي الثقافي يكون ذلك أقربَ إلى قوة النَّسل وتنامي عناصر النَّجابة والذَّكاء.

أضف إلى ذلك أنَّ عبد الله بن عبد المطلب لم يكن له ولد غيرَ رسول الله ﷺ ذكر ولا أنثى(٧)، وهذا يجعل الفُرْصَةَ للابن الواحد أكثر مواتاة وأقربَ رُحماً.

ثانياً: رَضَاعه ﷺ:

أرضعت رسولَ الله ﷺ حليمةُ السَّعدية. وهي حليمة بنت عبد الله بن الحارث من بني سعد بن بكر بن هوازن. قدم مكةَ عَشْرُ نسوة من بني =

= سعد بن بكر يطلبن الرَّضاع. فأصبن الرَّضاع كلُّهن إلاَّ حليمةَ بنت عبد الله بن الحارث. فَعُرِضَ عليها رسول الله ﷺ، فجعلت تقول: يتيم ولا مالَ له، وما عست أُمُّه أن تفعل؟ فخرج النِّسوة وخَلَّفْنَها، فقالت حليمة لزوجها: ما ترى؟ قد خرج صواحبي وليس بمكة غُلامٌ يُسْتَرضع إلاَّ هذا الغلام اليتيم، فلو أنَّا أخذناه، فإنِّي أكره أن نرجع إلى بلادنا ولم نأخذ شيئاً. فقال لها زوجها: خذيه عسى اللهُ أن يجعل لنا فيه خيراً. الطبقات ١: ١١٠-١١١.

ومكث رسول الله ﷺ عند مرضعته سنتين حتى فُطم، وكأنَّه ابن أربع سنين، فقدمت به على أُمِّه زائرةً لها، وأخبرتها حليمةُ خَبَرَهُ وما رأت من بَرَكَتِهِ، فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباءَ مكَّة، فوالله ليكونَنَّ له شأن. وبقي عند مرضعته خمس سنين. الطبقات الكبرى ١: ١١٢.

وواضح من السياق فضلُ البادية على رسول الله ﷺ وهو طفل وأثر الهواء النقي، والتغذية بلبن الأم ولبن الماشية التي ترعى النبات البرِّي؛ على نوعية اللبن (الحليب) والغذاء. والعقل السليم في الجسم السَّليم.

أضف إلى ذلك أن بني سعد بن بكر كانوا مشهورين بالفصاحة. قال رسول الله ﷺ: «أنا أَعْرَبُكم أنا من قريشٍ، وَلِساني لِسَانُ ابن سَعْدِ بن بكر»(٨).

والحديث بصيغة قريبة من ذلك في سيرة ابن هشام ١: ١٦٧.

وبنو سعد بن بكر من قبيلة هَوازن المشهورة التي لها شأن يوم حُنين، ثم أُمكن رَسُولُ الله ﷺ منهم، فجاءه عَمُّه ﷺ من الرَّضاعة، أبو ثَروان، وَتَشفَّعَ في قومه؛ فعفا عنهم رَسُولُ الله ﷺ. قال أبو ثروان يومئذ: يا رسول الله، إنَّما في هذه الحظائر مَنْ كان يكْفُلك من عَمَّاتك وخالاتك وحواضِنِكَ، وقد حَضَنَّاك في حجورنا، وأرضعناك بثُدِيِّنا، ولقد رأيتك مُرْضَعَاً فما رأيتُ مُرضَعَاً خيراً منك، ورأيتك فطيماً فما رأيتُ فطيماً خيراً منك، ثم رأيتك شابَّاً فما رأيتُ شابَّاً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خِلالُ الخير، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك، فامنُنْ علينا مَنَّ الله عليك!

فمنَّ رسول الله ﷺ وردَّ عليهم أبناءَهم وأموالهم. =

= الطبقات الكبرى ١: ١١٤-١١٥.

وَأثرُ لبن الرَّضاعَ لا يخفى في إذكاء الذكاء، واتِّقاد القريحة في الرَّضيع. ومَنْ كان رَضَاعُه في البادية حيث الهواءُ النقي غيرُه من كان رَضَاعهُ في غيرها.

ثالثاً: أسْفَارُه ﷺ:

وأتيح لرسول الله ﷺ ما لم يُتح لأقرانه من أهل مكّة في مثل سنِّه.

فلما بلغ رسولُ الله ﷺ ست سنين خرجت به أُمُّه إلى أخواله بني عَدِيٍّ بن النَجَّار بالمدينة تزورهم به، ومعه أُمُّ أيمنَ تحضنه وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة فأقامت به عندهم شهراً، فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً كانت في مَقامه ذلك، لمّا نظر إلى أُطم بني عَدِيٍّ بن النَجّار عرفه وقال: كنت ألاعب أَنيسَةَ جَارِيةَ من الأنصار على هذا الأُطم، وكنت مع غلْمَانٍ من أخوالي نُطَيِّرُ طائراً كان يقع عليه. ونظر رسول الله ﷺ إلى الدار فقال: ههنا نزلتْ بي أُمّي، وفي هذه الدَّار قُبِرَ أبي عبدُ الله بن عبد المُطَّلب، وأحسنت العَوْمَ في بئر بني عَدِيٍّ بن النَّجَّار.

ثم رجعتْ به أُمُّه إلى مَكَّة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب، فَقَبْرُها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما مكة.

الطبقات الكبرى ١: ١١٦. سيرة ابن هشام ١: ١٦٨. المعارف ٨٨.

وخرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة وهو ابن اثنتي عَشْرة سنة(٩)؛ وخرج إلى الشام لخديجة ابنة خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة. المعارف ٨٨.

وَمِثْل هذه الرِّحلات في مِثْل هذه السِنِّ المُبكِّرة مع طول الرحلة ومقابلة الناس والاستماع إلى أحاديثهم والوقوف على أخبارهم فتحت على رسول الله ﷺ نافذة من الخبرة والتجربة لم يتلقَّها أقرانه من أهل مكة في زَمَانه.

رابعاً: الخَلْوةُ والتفكر.

حُبِّب إلى رسول الله ﷺ الخَلْوةُ والتفكر. وهما طريقان إلى الصقل الذهني =

= والصفاء النفسي ما كان لمن كان في مثل سِنه ﷺ من شباب مكة أن يصل إليهما.

قال محمد بن سعد: عن عائشةَ قالت: «كان أولَ ما بُدِىء به رسول الله ﷺ - من الوحي الرؤيا الصَّادقة، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح. قالت: فمكثَ على ذلك ما شاءَ الله، وحُبِّب إليه الخَلْوةُ فلم يكن شيء أَحَبَّ إليه منها، وكان يخلو بغار حِرَاءَ يتحنَّث فيه اللَّياليَ ذوات العَدَد قبل أن يَرْجعَ إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها حتى فَجئَه الحَقُّ وهو في غار حِراء»(١٠).

وكان أن اختار الله تعالى رسوله محمداً ﷺ على رأس الأربعين من عمره ﷺ، وكان أول ما أنزل على النبي ﷺ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق] نزل عليه ﷺ يوم حراء. وكان أن يَسَّر الله تعالى القرآن بلسان نبيه محمد ﷺ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [الدخان]. فكان أن تكاملت عناصر البيان عند رسول الله ﷺ على نحو عَزَّ نظيره بين العرب والعجم أجمعين.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن رسول الله ﷺ قد انزاح من أمامه بُعْدَا الزمان والمكان بحيث كان يُنبِّأ بأحوال السابقين وما يكون مآلهم يوم القيامة، يتبيّنُ أنَّ رسول الله ﷺ كان البيانيَّ الأول عن جدارةٍ واستحقاق وكرامة.

---

(١) أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت٢١٨هـ): السيرة النبوية. ت. مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي (دار الكنوز الأدبية - بيروت. بدون تاريخ) ١: ١.

(٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت٢٧٦هـ المعارف ط١ (دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م) ص٤٣.

(٣) محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى (دار صادر بيروت، بدون تاريخ) ١: ٩١-٩٢.

وبيِّن من قول ابن الأثير أنَّ الإعجاز سيبقى في البيان دون غيره وإن ثبت أنَّ هناك إشاراتٍ علميةً أو عدديةً معجزة. وهو ما ذهب إليه ابن ناقيا البغدادي حيث قال بعد حديثه عن حال العرب: «. . . مع وقوع التحدي لهم بما لا يخرج عن شأنهم». الجمان في تشبيهات القرآن ص٢٤٠.

إنَّ الإعجاز هو البيان، ولا ينبغي لأحد أن يقيم الحُجَّة على الناس من غير هذا الطريق. ومن هنا نتبين وعورة الطريق الذي يسلكه بعض الذين يشددون على أنفسهم في تفسير القرآن عصرياً كما فعل د. مصطفى محمود، أو عددياً كما فعل د. عبد الرزاق نوفل في «الإعجاز العددي للقرآن الكريم». ناهيك عن أنَّ هذه الحُجة لن تطال المعاصرين للرسالة الإسلامية على عهد نزول الوحي عليه السلام على رسول الله ﷺ لبعد عهدهم عن التفسيرات العلمية أو العددية، ولأنَّ مجال التحدي في غير الذي قد مهروه، وحذقوه، وعُرفوا به.

= (٤) «عن الزُّهري: أخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عُثمانُ: زيدَ بن ثابت، وسعيدَ بن العَاص، وعبد الله بن الزُّبير، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام، أن ينسخوا ما في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابتٍ في عَربية مِن عَربيةِ القرآن، فاكتبوها بلسان قُريشٍ، فإنَّ القرآن أُنزِلَ بِلِسانهم، ففعلوا».

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري ط١ (دار القلم - بيروت ١٩٨١م) ٤: ١٩٠٦.

والبيان هو ترتيب المعاني في النفس، والانتظام فيها على قضية العقل[1]. ومن ثَمَّ فهو التغلغل إلى دقائق اللغة وأسرارها، علاوة على

= رقم الحديث ٤٦٩٩ - كتاب فضائل القرآن.

(٥) توفي عبد الله في المدينة مقيماً عند أخواله بني عَدِيٍّ بن النَّجَّار بعد أوبته من رحلة إلى غَزَّة «في عِيرٍ من عِيرات قريش يحملون تجارات» وله من العمر خمس وعشرون سنة، ورسول الله ﷺ، يومئذ حَمْلٌ.

الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ١: ٩٩.

(٦) المعارف ٧١.

(٧) المعارف ٧١.

(٨) الطبقات الكبرى ١: ١١٣.

(٩) يروي ابن إسحاق أنَّ أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام، فلمَّا تَهيَّأ للرحيل، وأجمع المسيرَ صَبَّ به رَسُولُ الله ﷺ، فَرَقَّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنَّ به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبداً. سيرة ابن هشام ١: ١٨٠.

(١٠) الطبقات الكبرى ١: ١٩٤.

(١) أسرار البلاغة ص٤.

قال النبي ﷺ: «الحكمة ضالَّة المؤمن، فهو أحَقُّ بها إذا وجدها».

المثل السائر ١: ١٠٠.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا طلعت عَلَيَّ شمسٌ يوم لم أزْدَدْ به جديداً».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ» معناه من النقصان بعد الزِّيادة.

لسان العرب: حور.

والحديث برواية قريبة في صحيح مسلم ٢: ٩٧٩ في كتاب الحج رقم ٤٢٦.

وذلك معناه أنَّ رسول الله ﷺ يريدُ التزود بالجديدِ في معرفةٍ نامية وَيَعُدُّ الموتَ موتَ المعرفة والنمو المعرفي. وكان أن استجاب الله دعاءَه فكان أن قُبض إلى الرفيق الأعلى وله من العمر ثلاث وستون سنة(١). وذلك أعلى قمة =

التَّحفِّي بكلِّ ما يَتفتَّقُ عنه العقل البشري من علوم، ومعارف، ومناهج بحث، وطرائق استدلال. لذا فهو عملية نامية Dynamic تعيشُ اللغة بكل أبعادها، وما يَجِدُّ فيها من إضافة، وتعميق، ومفاهيم؛ مع متابعة القضايا العقلية، واستيعاب العصر، ومعطياته الثقافية.

وبالجملة، فإنَّ صاحب هذه الصناعة - كما يقول ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) يحتاج إلى التشبُّث بكلِّ فَنٍّ من الفنون، حتى إنَّه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبةُ بين النِّساء، والماشطةُ عند جَلْوَة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السُّوق على السِّلعة، فما ظَنُّكَ بما فوق هذا؟ والسَّبب في ذلك أنَّه مُؤهَّل لأن يهيم في كُلِّ واد، فيحتاجَ أن يتعلق بكل فَنٍّ[1].

= النمو الفكري والمعرفي حيث تبدأ بعدها الخلايا بالانحدار.

وقُبض رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى يوم الإثنين سنة ١١هـ.

المعارف ٩٧.

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) يقول: أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السنُّ التي بعث الله تعالى فيها محمداً ﷺ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السِنُّ التي قُبض فيها رسول الله ﷺ.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ): **وفيات الأعيان وأنْبَاء أبْنَاء الزَّمان**. ت. إحسان عباس (دار صادر - بيروت ١٩٦٩م) ٢: ٢٤٥.

---

(١) المعارف ٩٧.

(١) **المثل السائر** ١: ٧٣.

وواضح أنَّ الذي يعرف الموسيقى والنحت وهندسة العمارة والتصوير واللغات المختلفة يكون أقدر على التذوق ممن حُرِمَها لأن هذه المَلَكات يفتح =

ويقول ابن الأثير: «والصحيح أنَّ بَابَ الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة ومن الذي يَحْجُر على الخواطر»[1]؟

ويقول الجاحظ: «البيان من نتاج العلم»[2].

أما كيف تترتب المعاني في النفس، وتنتظم على قضية العقل، فذلك في الألغاز المُسْتَسِرَّةِ، التي تستعصي على الكشف، وتَدِقُّ عن العلم.

يقول الدكتور خالص جلبي كنجو: «كيف يتم التفكير والإدراك والتخيُّلُ وتركيبُ الكلمات والجمل والأفكار وربط كل هذا بعضه إلى بعض بحيث يخرج الكلام منسجماً متوازناً يهدف إلى معنى، إنَّ هذا يقف الطب حتى الآن عن الإجابة (عليه). ثم كيف يستخدم الإنسان الأسماء حتى يتفاهم مع غيره على الشيء الذي يريده أيضاً معجزة من المعجزات. ثم كيف ينتقل هذا الأمر من عالم الماديات المحسوسة إلى عالم الروح والفكر حيث يتم التعبير بالأشياء المجردة؟ الحقُّ يقال: إننا درسنا عمومات الطب من أوله إلى آخره، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نفقه هذه الأسرار»[3].

ولأمرٍ ما شاء الله تعالى أن تكون معجزةُ القرآن الكريم بيانيةً باقيةً بقاءَ النَّيِّرين، حتى يَرِثَ اللهُ الأرض ومَنْ عليها.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]. وقوله

= بعضها على بعض.

(١) المثل السائر. ج٣ ص٢١٩.

(٢) **البيان والتبيين**. ط. السندوبي مصر ١٩٣٨-١٩٤٥م، ج١ ص٧٨.

(٣) **الطب في محراب الإيمان**: الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت ١٩٧١م، ج١ ص١٤٢.

تعالى: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود] إقرارٌ لهم بالبراعة اللغوية دون حصول العلم بالحقائق والمقاصد، وَمِنْ ثَمَّ حَبِطَتْ محاولاتُهم لأنَّ البيان هو وحدة اللغة والعلم، وحدة لا انفصام فيها، تماماً كما يلتقي الشعور والقلب والعقل في الشخصية الإنسانية، ومن ثم تكون الأمانة والتكليف من خلال وحدة الرؤية في ذلك كله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وها قد مر أَرْبَعَةَ عَشَرَ قرناً ولم يَذُرَّ[(١)] لأيِّ كتابٍ قَرْنٌ في منافسة القرآن الكريم أو أن يُخمِدَ له ذِكْراً حتى كارل ماركس الذي يُبَشِّرُ الملحدون بفكره؛ مات وهو يعتبر القرآن الكريم مُنَافِسَهُ الأكبر[(٢)].

وإذا كان هذا الكتاب المُعْجِزُ النَّاطِقُ بالحق قد أذعنت له أعناق العرب وهم أهل لَسَنٍ وَفَصَاحةٍ، حتى إن معلقاتهم لا تزال في الفُحولة التي تُعْجِزُ المتأخرين، وأنْ قد بَلَغَ الأمْرُ من رهافة حِسِّهم وتحفيهم بالنصوص والروائع أن كانوا يُولِمُونَ لنبوغ شاعر[(٣)]، وَحَدَّ ترك أُمور معاشهم

---

(١) ذرّت الشمس تَذُرُّ ذُرُوراً، بالضم: طَلَعَتْ وظَهرت. لسان العرب: ذرر.

(٢) Business Week, April 4, 1977, P.15.

(٣) ابن رشيق القيرواني، العمدة ١: ٦٥. ومصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد. ط٢ (دار المعارف بمصر ١٩٦٢م) ص١٠٩.

للموازنة بين الشعراء في أسواقهم العامة في عُكَاظ وذي المَجَاز والمُشَقَّر[1]، وفي مواسمهم ومنافراتهم؛ فإنه اليوم - ومع غياب الدولة الإسلامية المركزية - وفي وقت تُجْهزُ فيه القوى العالمية على آخر مقدرات الأمة الإسلامية وهو أمر دينها[2]، ويحاربُ على مستوى الحكومات الاستعمارية والمؤسسات والأفراد، ويُمَوَّلُ على ذلك جنود ظاهرون ومستترون[3]، فإنَّه يُؤَلِّفُ كل يوم قلوباً ما عَمَرتها الحضارة المادية. إنَّ الطوابير الجرارة التي تعلن إسلامها على ملأ من أقوامها في العواصم الغربية والشرقية على السواء، لَهِيَ الدليلُ العملي على قوة البيان القرآني، ومقدرته على مخاطبةِ العقل وتحريك الوجدان والمشاعر.

---

(١) انظر أسواق العرب في الجاهلية في تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧٠ (دار صادر: بيروت ١٩٦٠م).

(٢) نشرت صحيفة الرأي الأردنية في عدد السبت ٢٩/٥/٧٦م تحقيقاً حول الجلسة الصاخبة التي عقدها مجلس الشعب المصري للتصويت: خمر أو لا خمر. وهذا يدل على ضياع تطبيق الحدود الإسلامية في بلد كان ابن أمير المؤمنين وابن والي مصر يُجلدان على شرب الخمر.

(٣) قال جلادستون رئيس الوزراء البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: «ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي في أمان». نقلاً عن كتاب (جذور البلاء) للمرحوم عبد الله التل ص٢٠٣.

- اكتشفت حكومة المغرب العربي آلاف النسخ المزورة من المصحف الشريف وفيه عدد من الآيات المُحَرَّفة لتلائم أهداف اليهود. واكتشفت مؤامرة يهودية أخرى في شيكاغو حين نشرت دار ديفز اليهودية ما أسمته «بالقرآن الصغير» أوجزت فيه القرآن على هواها، وتنبهت القاهرة والأزهر الشريف لهذه المؤامرة الخسيسة، وسارعت الجمعيات الإسلامية في المناطق التي وُزِّعَ فيها القرآنُ المزيف إلى جمعه وحرقه (انظر: جذور البلاء ص٢١١).

أما الأمثلة على بهر فصحاء العرب ببيان القرآن، ومعجزته العقلية، فهي كثيرة، ومَبثوثةٌ في كتب السير والبلاغة. وقد آمن لسماع القرآن الكريم نفر كثير، منهم: أبو ذَرٍّ الغِفاري[١]، وأخوه أُنيس، وجُبَيْر بن مُطْعِم[٢]، وعمر بن الخطاب[٣] رضي الله عنهم.

---

(١) أبو ذَرٍّ الغِفَاري (جُنْدَبُ بن جنادة). كان يتعبد قبل مبعث رسول الله ﷺ، وأسلم بمكة قديماً. قال: كنت في الإسلام رابعاً. ورجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق. ثم قدم المدينة ومات بالرَّبَذة قرب المدينة المنورة سنة ٣٢هـ.

قال أبو ذَرٍّ: انطلقنا حتى نزلت بحضرة مكة، وانطلق أخي أُنَيس فرَاث (أبطأ) عَلَيَّ. فقلت: ما حَبَسَك؟ قال: لقيت رَجُلاً يزعم أنَّ الله عز وَجَلَّ أرسله. قال: فقلت: ما يقولُ الناسُ فيه؟ قال: يقولون: إنه شاعر وساحر وكاهن. قال أنيس: قد سمعت قول الكُهَّانِ فما يقولُ بقولهم، وقد وضعت قوله على أقراء الشعراء فوالله ما يُلتام، ووالله إنَّه لصادق وإنهم لكاذبون.

أبو الفَرَج جمال الدين بن الجوزي (٥٩٧هـ): **صفة الصفوة**. ط٤ (دار المعرفة: بيروت ١٩٨٦م) ١: ٥٨٤-٥٨٦.

وبهامشه: أقراء واحدها قرء بالفتح.

أي: على طرق الشِّعر وأنواعه، وبحوره.

وفي عبارة: «لقد وضعت قوله على أقراء الشعراء، فلا يلتئم على لسان أحد».

(٢) جُبير بن مُطعِم بن عَدِيٍّ بن نَوفل بن عبد مناف القرشي النَّوفلي. قدم على النبي ﷺ في فداء أسارى بدر، ثم أسلم بعد ذلك في عام خيبر، وقيل يوم الفتح. روى عن النبي ﷺ أحاديث؛ وروى عنه ابناه: محمد ونافع؛ وروى عنه سعيد بن المُسَيَّب. توفي في المدينة في سنة ٥٦، أو ٥٨، أو ٥٩هـ.

ابن حجر العسقلاني: **تهذيب التهذيب** (مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدر آبار الدَّكن ١٣٢٥هـ) ١: ٦٣-٦٤.

(٣) عُمَرُ بن الخطاب بن نُفيل بن عَدِيٍّ بن كعب، وأُمُّه حنتمة بنت هشام بن =

ويكفي أن نشير إلى قصة الوليد بن المغيرة مع القرآن الكريم وذلك بصفته أحد الفصحاء الذين كان لهم وزن في معرفة أسرار الكَلِمِ - كما يرويها ابن هشام -: اجتمع النفر إلى الوليد بن المغيرة في الموسم إذ قال لهم: «يا مَعْشَرَ قُريش، إنه قد حضر هذا المَوْسِمُ، وإنْ وُفُودَ العَرَبَ سَتَقْدَمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً، ويردّ قولُكم بَعْضُه بعْضَا، قالوا: فأنتَ يا أبا عبد شمس، فَقُلْ وأقِمْ لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سَجْعه، قالوا: فنقول مجنون، قال: فما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقِهِ، ولا

= المُغيرة بن عمر بن مخزوم. أحد العَشَرة المُبَشَّرين بالجنَّة، وثاني الخلفاء الراشدين، وأحد أصهار الرسول ﷺ. استخلف سنة ١٣هـ. وقد مَصَّر الأمصار، ودَوَّن الدواوين، وأجرى العطايا. طُعن في سنة ٢٣هـ.

تاريخ اليعقوبي ٢: ١٣٩-١٦١.

صفة الصفوة ١: ٢٦٨-٢٩٣.

جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ): **تاريخ الخلفاء**. تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (د. ن. و. د. م.) ١٠٨-١٤٧.

وكان عمر بن الخطاب قد قرأ سورة «طه» في صحيفة أعطته إياها أُخته فاطمة بنت الخطاب، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه. وكانت سبباً في إسلامه.

سيرة ابن هشام: ١: ٣٤٣-٣٤٦.

وفي رواية أنّه استمع لرسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم في صلاته في البيت الحرام يقول: «فلما سمعتُ القرآنَ رَقَّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام».

سيرة ابن هشام: ١: ٣٤٧.

تَخَالُجِهِ، ولا وَسْوَسَتِهِ، قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشِّعر كُلَّه: رَجَزَه وهَزَجه وقريضَه ومَقْبُوضَهُ ومَبْسُوطَهُ، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَارَ وسِحْرَهُمْ، فما هو بنَفْثِهِم ولا عَقْدِهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله لحلاوةً، وإنَّ أصلَه لَعَذِق، وإنَّ فَرْعَهُ لَجَنَاةٌ[1].

وأن لبيداً بن ربيعة العامري، أحد شعراء المعلقات، كان عمر بن الخطاب أرسل إليه يطلبُ منه ما قاله في الإسلام من الشعر، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها فقال: أَبدلَنِيَ اللهُ هذه في الإسلام مكانَ الشعر[2].

وفي العصور الوسيطة كان للبيان القرآني قدرة عجيبة على غزو القلوب وعمارتها ونشر الإسلام في وقت كانت دول الإسلام مُجزَّأَةً ضعيفة. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى اعتناق المغول للإسلام في وقت كانوا فيه في أوج انتصاراتهم وأمجادهم العسكرية. وهكذا تَحَوَّل مَنْ كان يُخَطِّطُ للقضاء على البيان الإسلامي وتقويضه ليصبح الحاميَ عنه بَلْهَ

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٧٠، دلائل الإعجاز ص٢٥٢ وفي قول آخر: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقولِ البشر.

الزمزمة: الكلامُ الخَفِيُّ لا يسمع. العذق: أصل النخلة.

العَقْد: كان الساحر يعقد خيطاً ثم ينفثُ فيه.

وأوصى الوليد بن المغيرة النَّفَر من قريش أن يقولوا عن رسول الله ﷺ «هو ساحر» فأنزل: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ... ﴾ [المدثر].

(٢) طبقات فحول الشعراء ج١ ص١٣٥. وانظر: ابن حَجَّةَ الحموي: خزانة الأدب ج٢ ص٢١٥.

الناشر له. وهذا المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد في كتابه «الدعوة الإسلامية»[1] يأتي على ذِكْرِ بعض ذلك، يقول: «كان أول مغولي اعتنق الإسلام بركة خان الذي يروي أبو الغازي: «أنه دخل الإسلام بعد اعتلائه العرش، إذ تقابل مع قافلة من بُخَارَى، وانفرد باثنين من رجالها، وسألهما عن الدين الإسلامي فشرحا له ما أرضى نفسَهُ فأسلم، ثم أفضى بذلك لأخيه الأصغر الذي أسلم هو الآخر»[2].

وفي سنة ١٢٩٥م اعتنق «قازان» سابع الخانات الإسلامَ وجعله دينَ الدولة في فارس، وكان هذا قد نشأ بوذياً وبنى عدة معابد للبوذية في خراسان، وبعد إسلامه غدا شديدَ الحماسة للدين وكان يَفِدُ إليه العلماء والفقهاء من كل مكان يجالسهم ويستمع إلى حديثهم[3].

أما طغلق تيمور خان فيقال: إن إسلامه كان على يد شيخ فاضل من بخارى اسمه جمال الدين، وتفصيل ذلك أن هذا الشيخ اجتاز مع بعض المسافرين أرضاً اختصها الأمير لنفسه يقضي فيها فراغه في الصيد والقَنْص، فلما علم بمرورهم، وكان ذلك محظوراً غضب وأمر بشدِّ وثَاقهم وإحضارهم إليه وسألهم عما دفعهم إلى المرور من هنا فقال الشيخ: إنهم قوم غرباء ولا يعلمون عن حرمة تلك الأرض، فسألهم عن جنسيتهم فقالوا: إنهم فُرْسٌ. فصاح بهم قائلاً: إن الكلاب أفضل من الفرس. فقال الشيخ: «صحيح لو لم نكن مؤمنين». فدهش لما سمع، وتساءل عن معنى مؤمنين. فقالوا: إننا نؤمن بالإسلام. وأخذ يشرح حقائق الدين بحماسة حتى استحال قلبُ الأمير إلى أرق من الشمع،

---

(١) ترجم منه مقتبسات بعنوان «دين الناس كافة» محمد خالد حسين.
(٢) دين الناس كافة ص١٣.
(٣) المصدر ذاته ص١٦.

ووصف الشيخُ الكفرَ وصفاً جعله ينفر منه، فأسلم. وبعد اعتلائه العرش أعلن إسلامه وتبعه قوم من المغول[١]. إن الإسلام - كما يقول توماس أرنولد - قد كسب أعظم انتصاراته في أماكن وأزمان كان سلطانه السياسي أضعف ما يكون[٢].

ولا نظن أن السلطان السياسي هو أقوى وسط هذه المنافسات العلمية العملاقة منه في العهود الوسيطة، والمتدبر لكتب كثيرة[٣] وضعت في المسلمين الغربيين ومواقف التحولات في حياتهم - ومعظمهم ينتمي إلى بيئات علمية وثقافية - يستطيع أن يظفر بالكثير من أسرار البيان القرآني وقدرته على غزو القلوب وعمارة العقول.

عالمية البيان:

إذا كان البيان هو العلم الذي يُعرفُ به إيرادُ المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، «والذي لولا تَحَفِّيه بالعلوم، وعنايته بها، وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة، ولما استبانت لها يَدَ الدهر صورة، ولاستمرَّ السّرارُ بأهِلَّتها، واستولى الخفاء على جملتها»[٤]، استتبع أن يكون ذلك عالمياً بأي لغة كانت، وفي أي وسط يكون.

والواقع أن البيان لغة عالمية، إذ إن كل عارف بأسرار الكلام - كما يقول ضياء الدين بن الأثير - من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن

---

(١) دين الناس كافة ص١٧.
(٢) المصدر ذاته ص٣٠.
(٣) من ذلك كتاب: «لماذا أسلمنا» وهو مجموعة مقالات لنخبة من رجال الفكر في مختلف الأقطار عن سبب اعتناقهم الإسلام/ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام.
(٤) دلائل الإعجاز ص٤.

إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة، يَلَذُّها السمع، ولا ينبو عنها الطبع، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة، ينبو عنها السمع[١].

ويقول أبو عثمان الجاحظ: «البيان اسم جامع لكل شيء كشفَ لك قناعَ المعنى، وهتكَ الحجابَ دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهمُ والإفهام، فبأيِّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[٢].

ولهذا صَحَّ لأبي عثمان الجاحظ أن يأتي على منطق أرسطو بالقول: «ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وُسِمَ بهذا الاسم لو قرأتَهُ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء العرب لما فهموا أكثره»[٣].

وصَحَّ لمؤلف كأبي محمد عبد الله بن قتيبة أن يتحدى المناطقة ببيان الإسلام إذ يقول: «ولو أن مؤلف حَدِّ المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لَعدَّ نفسه من البُكم، أو يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته لأيقن أنَّ للعربِ الحكمةَ وفَصْلَ الخطاب»[٤].

إن من مهام علم البيان: وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وتصحيح الأقسام، وحسن الترتيب والنظام، والإبداع في التشبيه والتمثيل،

---

(١) المثل السائر ١: ١٢٠.

(٢) البيان والتبيين ١: ٧٦.

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان ١: ٩٠.

(٤) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص٥ المقدمة.

والإجمال ثم التفصيل، ووضع الفصل والوصل موضعهما، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما[١]، وهذه موجودة في كل لغة[٢]، وموافية على أي لسان.

النظام اللغوي:

دلت الدراسات على أن جميع لغات البشر لها نظام متشابه، فكل اللغات تتكون من جُمَلٍ تتكون بدورها من كلمات. وكلها يمكن تركيب جمل منها أكبر من خلال تضمين بعضها ببعض، وكلها لها علاقات نحوية. والكلمات في كل اللغات تتكون من أصوات مميزة، وهذه الأصوات لها موحيات ودلالات معينة.

إنَّ التشابه بين اللغات يميز لغة الإنسان عن لغات الحيوان، وكلها تتصل بالتركيب الحياتي للإنسان[٣].

إن هذه العالمية في اللغة مردها إلى تركيب الدماغ. فكما ترثُ الطيورُ المقدرةَ على الطيران والأسماك المقدرة على السباحة، فإن الناس يرثون المقدرة على استخدام اللغة بطريقة تميز نوعهم[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز ص٤٠ ويقول الجاحظ: «وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختيار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى» البيان والتبيين ج١: ٧٣.

(٢) جاء في تعريف البلاغة أنها اسم لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون خطباً، وربما كانت رسائل: «كتاب الصناعتين» ١ : ٢٠.
واضح أن هذه أمور إنسانية لا تختص بلغة دون لغة.

(٣) Generative Grammar, P. 27.

(٤) Ibid, P.7.

ورغم المحاولات المستمرة - يقول د. كارل ديلر - لم يستطع أحد تعليم لغة البشر إلى الحيوانات. إنه ليس على حجم دماغ الإنسان يتوقفُ تَعلُّمُ اللغة، ولكن على تنظيم دماغه. إن تعلم اللغة يعتمد عمليات حياتية، وإن تطور اللغة عند كل طفل هي ذاتها رغم فوارق اللغة والثقافة والوسط. صحيح أن بعض الأطفال يَتْقِفون لغاتٍ قبلَ غيرهم، ولكن طريقة النمو هي ذاتها لدى جميع الأطفال وحتى للمعوقين منهم. على أن أهم ظاهرة تبقى تستلفتُ النظرَ بشأن اللغة، هي - كما يقول ديلر - عالميتها[1].

إن اللغة الإنسانية - أي لغة - هي نظام متكامل ومعقد كما هو العقل البشري. لذا، فإن الوقوف على أسرار اللغة، ومباشرة نصوصها، وتعلم طرائقها في البيان والتبيين، لهو من التعليم قَلْبُه[2]. وإذ يكون البيان تَحَفِّياً بالعلوم جميعاً وبسائر المعطيات الحضارية والثقافية وكل ما تَفتَّقَ عنه الذهنُ البشري من مناهج في التفكير وأساليب في الاستدلال وطرائق في المعرفة، فإن وقوفنا على أسرار لغتنا، ومباشرة نصوصها وتعلم طرائقها في التفكير لهو تأصيلٌ لعالمية البيان، لأن اللغة ظاهرة ذهنية[3]. ومن ثَمَّ كان التنويه باللغة الأم وأثرها على الأصالة الفكرية، بل وطريقة التفكير. إن الذي يسبر لغته ويتغلغل فيها على الدقائق والأسرار لهو في أفقٍ عُلْوِيٍّ يستشرفُ معه العوالم الأخرى على نحو أفضل منه لو بقيَ على العتبات الخارجية لمسطح من اللغات المتعددة. ولا يعني هذا أننا نُقلِّلُ من أهمية تعلم اللغات الأجنبية، ولكن يعني أن يكون تعلم اللغات

---

(١) Ibid, P.77.

(٢) Effective Writing, P.1.

(٣) Generative Grammar, P.35.

الأجنبية بعد ثقافِ اللغةِ الأم، وليس على حسابها.

إن في كل لغة كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني - دقائق وأسراراً طريقُ العلم بها الرويَّةُ والفِكْر، ولطائفَ مُستقاها العقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قوم قد هُدُوا إليها، ودلوا عليها، وكُشِفَ لهم عنها، ورُفعت الحُجُبُ بينهم وبينها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يَفْضُل بَعْضُه بعضاً، وأن يبعد الشأو في ذلك، وتمتد الغاية ويعلو المرتقى، وَيَعُزَّ المطلب[١].

روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي (يعقوب بن إسحاق) المتفلسف إلى أبي العباس (المُبَرِّد) وقال له: إني لأجدُ في كلام العرب حشواً. فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أَجِدُ العرب يقولون: عبد الله قائمٌ، ثم يقولون: إن عبد الله قائمٌ، ثم يقولون: إنَّ عبد الله لقائم. فالألفاظ مكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه. وقولهم: إن عبد الله قائم: جواب عن سؤال، وقولهم: إن عبد الله لقائم - جوابُ إنكار منكرِ قيامِهِ، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني. فما أحار المتفلسف جواباً[٢]. وإذا كان مثل هذا يغمضُ على فيلسوف عربي، فإن الحاجة تبقى تُلِحُّ على كل متكلم بِلُغَته أن يسبرَ أغوارَها، وأن يقف على مقاصدِها في القول وطرائقها في التعبير.

إن من أهم تعقيدات اللغة - أي لغة - أنه لا يوجد نمط واحد من الكتابة يلائم سائر الموضوعات في جميع المستويات، بل إن هناك تفاوتاً

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٥.

(٢) نفس المصدر ص٢٠٦.

في استعمالاتها[1]. وإن ذلك التفاوت لَيَتَّضِحُ في درجات التحفظ في مراعاة المقام Level of formality، وفي المفردات Vocabulary وفي اللهجة Tone وفي عرض التفصيلات وفي أنماط الجمل، وربما في طرائق الترتيب وأساليب التطوير، ومع ذلك فإن كلاًّ منها بمفرده هو على درجة من الجودة عالية[2]. وخير ما يُمَثِّلُ ذلك كله القرآن الكريم. فالقرآنُ أُفُقٌ متسق من حيث الجودة الفنية، ومع ذلك يجد المرء السور والآيات المكية غيرها السور والآيات المدنية. ففي حين تميل الآيات المكية إلى القِصَرِ والوقع الموسيقي الحاد لتلائم جَوَّ الزجر والردع والتقريع ورسم المتقابلات بين مواقف أهل الجنة وأهل النار نجد في المدني من الآيات إطالةً في التفصيلات، وهدوًا في النغمات.

ففي المكيِّ نجد قوله تعالى من سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ
فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ
فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ
خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ
أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ
قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾.

وتَطُولُ المواقفُ في السور المدنية، «يؤثر طول عرضها في الوجدان، ويدعو المشاهدين إلى أن يشاركوا المؤمنين في عبادتهم وصفاتهم

---

(١) Effective writing, P.1.

(٢) Ibid., P.3. وفي هذا الصدد يستذكر المرء اندفاعة ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا في جعل اللغة الإنجليزية لغة العالم من خلال قَصْرها على عددٍ من الألفاظ يَسهلُ حفظها وتداولها وصعوبة هذا المرام.

المعروضة على الأنظار»(1) من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

وفي حين تبدأ الآيات المكية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴿٢١﴾﴾، تجد الآيات المدنية تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴿١٠٤﴾﴾. ومع التفاوت في ذلك نجد الآيات جميعاً على ذات الدرجة من التجويد الفني والأفق العالي. وكمثلٍ على الدقائق والأسرار في اللغة يكفي أن نشير إلى ما أورده مؤلف «شرح العقيدة الطحاوية» في معرضِ رَدِّهِ على مَنْ قال: إنَّ جواب موسى عليه السلام على فرعون: وما رب العالمين؟ بقوله ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء] هو من قبيل المغالطة، إذ ذهب بعض المناطقة إلى الزعم أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية وأن المسؤول عنه، لَمَّا لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب، وهذا غلط كما يقول الشارح. وإنما هذا استفهامُ إنكارٍ وجحد، كما دل سائرُ آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له، لم يكن مُثْبتاً له طالباً للعلم بماهيته. فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو(2).

والمتدبِّرُ لنسقِ الآيات يعجبُ ويطربُ للفتةِ المؤلف هذه وحُسْنِ رده وقدرته على التصور الواضح. ففرعون كما تُظهرهُ الآياتُ يبدو الجاحد المنكر المتسخط الذي لا يسأل استفهاماً ولا يلقي للسمع آذاناً صاغية.

---

(1) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١١٠.

(2) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٧.

ومن هنا فإن أسئلته لم تكن غير المشاكسة والمخالفة والعتو والخيلاء. وما أحسنَ ما تصدع به الجاحد والمنكر من أن تُعَدِّدَ له آثار النعمة وأعمالاً هي فوق مقدور البشر، عند ذلك تَكْبتهُ وتتركه في الجو النفسي، صدى الحق فيه يقرع أذنيه قرعاً. ما نَفْعُ مَنْ تأتيه بهدوء المنطق وهو الذي يشتم ويكابر ويتصدى فَهِمَ أم لم يفهم؟ وإذاً فلا مغالطة ولكنها البلاغة تُرَادُ والفصاحة تقصد، وأهل البيان وشيوخ اللغة يعلمون أثر هذا الخطاب في نفوس تغلفها الغلظة وران عليها ما اجترحته من فعائل ومحدثات[1].

أهلُ اللغة وأصحاب العربية يعلمون أن لو أراد السائلُ المستنكر والمعاند والمكابر وهو فرعون في هذه الحالة أن يبغي إلى الاستبيان والتثبت طريقاً لقال: ومَنْ رَبُّ العالمين، على التوقير والتعظيم واستجلاء الماهية وإعطاء من له صفة الربوبية بعض ما يليق بصفات، ولكنه عدل عن ذلك ليسأل مستنكراً معانداً بصيغة تقصد إلى التعمية وتجانب الوضوح. ومن ثم فإن موسى عليه السلام قد رتب في منطقه أن يكون وجود رب العالمين أمراً مفروغاً منه ومن ثَمَّ طفق يُعدِّدُ آلاء الله وآياته السابقات الواضحات، وبذا يكون موسى عليه السلام قد انتقل من خانة أُريدَ له أن يقيده مكانها إلى موضع يحسن فيه الهجوم والتحدي والتبكيت[2].

إن هذه دقائق لا يفطن لها «إلا مَنْ غلغلَ الفِكْرَ وأَدقَّ النظر، ومن يرجع من طبعه إلى أَلمعيةٍ يقوى معها على الغامض، ويصل بها إلى

(١) في النقد الأدبي التطبيقي ص ص١٠٨-١٠٩.
(٢) نفس المصدر ص١٠٩.

مُجيداً، أو خطيباً مُفَوَّهاً في عدد ساعات أو في أيام قليلة، «لأن ما لا يدرك على طول الزمان ومرور الأيام، لا يجوز أن تُحيطَ به في ساعةٍ من نهار»[1].

وإذا كان الإنسان بالتعلم وبطول الاختلافِ إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجودُ لفظهُ، ويحسنُ أدبه كما يقول أبو عثمان الجاحظ[2]، فإننا مَعْنيون بالتمرس بالنصوص الجمالية والروائع الأدبية والأنماط العالية وطولِ تَدبُّرٍ لآياتِ كتاب الله تعالى، المسطورةِ منها والمنظورة. فإن وافى ذلك كله استعدادٌ مُؤاتٍ، ونفس صافية مقبلة على ربها، فإنَّ أمرَ بروزِ ملكةِ الذوق، والبصر بمواقع الحجة، وفتح أبواب من اللطائف والاستحسان وتقدير الجودة والإبداع - على النفس - نحسبه بإذن الله تعالى مؤاتياً وقريباً.

---

(١) أبو القاسم الآمدي: الموازنة بين الطائيين ١ : ٣٩٢.

(٢) البيان والتبيين ط السندوبي ١ : ٨٦.

الخفي»[١].

ولا يُجَلِّي المرءُ في لغته حتى يكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى يفاضل الإحسان والإحسان ويعرف طبقات المحسنين[٢].

وهذا يحتاج إلى صبر على التأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همةٍ تأبى أن تَقنعَ إلا بالتمام، وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية[٣].

ومن ثَمَّ تفاضلَ الناسُ في ذلك وتباينوا، تفاضلوا ما بين لغة ولغة، «وفَضَل بعضُ القائلين على بعض حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يُعْلِموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم»[٤].

إن تعلم اللغة مهمة تستغرق الحياة بأسرها[٥]، ومع ذلك، فإن أعوام الدراسة الجامعية تمثل بعض أخصب الفترات في عملية التعلم، لأن المرء ينتقل فيها من مرحلة البلوغ إلى مرحلة النضج، ولأن الدراسة الجامعية في سائر حقول العلم والمعرفة قد أضحت في مسيس الحاجة إلى استخدامات اللغة وتوظيفها[٦]. ولا يتوقع أحدٌ منك أن تغدو كاتباً

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٩٦.

(٢) نفس المصدر ص٢٧.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) نفس المصدر ص٣٠.

(٥) انظر مقالة ابن خلدون في هذا الصدد المسماة: باب أن العلوم الإلهية لا تُوَسَّعُ فيها الأنظارُ ولا تُفَرَّعُ المسائل/ المُقَدِّمة.

(٦) The Effective Writing, P.1.

الباب الثاني

الحُجَّة بالقرآن الكريم

بعث الله تعالى النبيين مُبَشِّرين ومنذرين، وأيدهم بالخوارق والمعجزات التي تَحُجُّ المعارضين، وتَكْمَعُ المعاندين. وحتى تكون الحجة آكد، كان كل نبي يُؤَيَّدُ بما تقومُ به الحجةُ على قومه في جنس ما مهروه، وبرعوا فيه. يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني في ذلك: «إنه لما كان السحر الغالب على قوم فرعون ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامَهُ في زمانهِ، جعل تعالى معجزة موسى عليه السلام في إبطاله وتوهينه، ولما كان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب جعل الله تعالى معجزته في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ولما انتهوْا إلى ذكر نبينا محمد ﷺ وذكروا ما كان الغالب على زمانه لم يذكروا إلا البلاغةَ والبيان والتصرف في ضروب النظم[1].

روي أنه ﷺ قال: «ما مِنْ نبيٍّ إلا أُوتي، ما مِثْلُهُ آمن به البشرُ، وإنما كان الذي أوتيتُهُ وحياً أُوحِيَ به إليَّ، وإني لأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة».

وقال ﷺ: «أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي، كان كلُّ نبيٍّ يُبْعَثُ

(١) دلائل الإعجاز ص٣٠٩. يقال كمع البعير إذا شَدَّ فاه بالكَعام عند هياجه، أو لأجل منعه من الأكل.

في قومه وبُعِثْتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ، وَأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، وَجُعِلَتْ ليَ الأرْضُ طَيِّبَةً وطَهُوراً، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بينَ يَدَيْ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعطيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ»[1].

كانت معجزات الأنبياء قبل محمد ﷺ آنية، ترتبطُ بزمان معين، ومكان معين، ومن ثم ذهبت بذهاب الأقوام التي عاينتها، إذ كيف ثمة تقوم الحجة على أناس هم خارج هذه المشاهد أو هم تالون لها زمناً؟! هذا إذا سَلِمَ النصُّ من التزوير والتحريف والدس والتشويه. فكيف إذا ضاعت النصوص، واعتراها ما اعترى أقوامها من يد البِلى، وكَرِّ الجديدين؟!

إن هذا المنطق وحده هو الذي يتفق وأبسط قواعد النظر والاستنتاج، وهو المنطق أقامه الإسلام حين صرح على لسان نبيه ﷺ أن كل نبي أُوتيَ ما مثله آمن به البشر وإن كل نبي كان يُبعثُ إلى قومه خاصة، وأنه يرجو أن يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة.

ولا عِبرة فيما يزعمه النصارى من عالمية رسالة عيسى عليه السلام كما كان يَكْرُز بها بولس في أهل رومية، ونحنُ نحب نبي الله عيسى ونعتقد أنه رسول حق إلى بني إسرائيل خاصة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۝٦﴾ [الصف].

على أن النصرانية التي تشيع بين الناس اليوم، وتساندها قوى كثيرة، كما يقول الشيخ محمد الغزالي، تخالف رسالات السماء كلها، إذ هي فلسفة، تجعل من عيسى إلهاً، أو شبه إله، يرسل الرسل، وينزل الكتب، يغفر الذنوب، ويحاسب الخلائق[2].

---

(١) ابن رشيق، العمدة ١: ٣٥٤.

(٢) من مقال بعنوان: عالمية الرسالة/ مجلة الوعي الإسلامي، السنة الثالثة عشرة، =

وهو الرأي كان قد قرره القاضي عبد الجبار الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥هـ حين قال: إنَّ النصرانيةَ تَروَّمَتْ، إذ أخذت بأخلاقِ الروم وتقاليدهم وآراء الفلسفة اليونانية وعقائدها[١].

شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ بيانية عقلية تقوم على التأمل والنظر والاستدلال والاستنتاج، وحتى تكون المعجزةُ أبينَ، والحجة أنصع، كان هذا النبي ﷺ أُمِّيَاً لا يقرأ الكتب، ولا يعرف ما فيها، ولا اختلف إلى أهلها، ولا اختلفوا إليه. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]. وقال تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل].

قد يظن بعض الناس - كما يقول شيخ الأزهر د. عبد الحليم محمود - أن العلم الذي يدعو إليه القرآن إنما هو العلمُ بالدين، أي العلم بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، والعلم بالفروض الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج، والعلم بالقانون الأخلاقي والتشريع الإلهي. والواقع أن العلم بالدين: عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً مما يَحثُّ عليه الإسلام، بل هو في المرتبة الأولى، لأن الإيمان هو الأساس في كل دعوة دينية منذ أن كان الدين. ومعرفة الإنسان بالله وصلته بالله عن طريق رسله، هي أسمى معرفة بالنسبة للإنسان باعتباره فرداً، وبالنسبة لأمن المجتمع وطمأنينته

= العدد ١٥ حزيران ١٩٧٧م.

(١) تثبيت دلائل النبوة ج١ ص٨٠ وانظر الفكر الإسلامي وطرائق النقد الأدبي ص٨٧.

على الدماء والأموال والأعراض[1].

ويضيف د. عبد الحليم محمود قوله: بيد أنه إذا كانت المعرفة بالله عن طريق رسله لها الصدارة في الأجواء الدينية، فإن القرآن بيّن لنا أن الكون كله هو كتاب للعلم بالله سبحانه وتعالى، إنه مجموعة من النواميس الإلهية التي يؤدي اكتشافها إلى زيادة المعرفة بالله وزيادة الخشية منه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

لقد أتى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]، في معرض الحديث عن تنسيق العالم المادي وترتيبه والإبداع فيه[2].

ويقول د. عبد الحليم محمود: لقد دفع القرآن المسلمين دفعاً إلى مختلف مجالات المعرفة في الكون. لقد دفعهم إلى مجال المعرفة بالتاريخ الذي يسميه «أيام الله» أيام الله التي أنعم فيها على من اتّبع هَدْيَهُ واستقام على أمرِهِ ودمر من سار في طريق المعصية والشر: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت].

---

(١) من مقالة بعنوان الإسلام والعلم/ مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٧/١٠/١٩٧٦م.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) ﴾ [الروم].

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ﴾ [غافر].

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾ [الأنعام].

ودفعهم إلى المعرفة بالفلك حينما أقسم ببعض الكواكب مشيراً إلى منزلتها بهذا القسم وحينما أقسم بمواقع النجوم، والقَسَمُ بمواقع النجوم فيه ما فيه من بعث للتأمل والتدبر والبحث، يقول سبحانه: ﴿ ۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]. ويقول سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) ﴾ [النجم]. ويتحدث[1] سبحانه عن النظام الدقيق الذي تسير عليه الأفلاك: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس].

وكما دفع القرآن إلى التعرف على «أيام الله» وكما دفعهم إلى النظر والتأمل والبحث في النجوم والكواكب، فإنه دفعهم على وجه العموم إلى البحث والنظر والتأمل في الكون كله، والآيات القرآنية في هذا المجال تتعاون وتتناسق لِتُوجِّهَ إلى التنقيب في جميع مجالات الكون لاكتشافِ نواميس الله في كتابه هذا المنظور.

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

ويقول سبحانه: ﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].

وَيَمُنُّ(١) الله سبحانه وتعالى على الإنسانية أجمع بآياته الباهرة، ضارباً المثل للعقلاء المستبصرين ليتجهوا بالبحث والدراسة إلى ما وجههم سبحانه نحوه، يقول سبحانه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي

---

(١) نفس المصدر والصفحة. صِنوان: جمع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها.

﴿ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾ [الروم].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ [الروم].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم].

ولقد سَخَّرَ[1] الله سبحانه وتعالى البَحْرَ، يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ [إبراهيم].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ [النحل].

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١﴾ [لقمان].

وينتهي الأمر في القرآن - كما يقول عبد الحليم محمود[2] - بأن الله سبحانه وتعالى سَخَّرَ الكوْنَ كُلَّه للإنسان. يقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٢٠﴾ [لقمان]، ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية].

ومعنى هذا كله - كما يقول د. عبد الحليم محمود[(١)] - أنَّ الله سبحانه وتعالى يُوَجِّه نُظَرَ الأمة الإسلامية إلى دراسة كتابه المَرْئي، إنه سبحانه يُوَجِّهُ نَظَرَها إلى البحث في الآفاق على مختلف أوضاعها. إنَّه يُوَجِّهُ نظرها إلى البحث في الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

لقد طلع الإسلام على الدنيا بأسرها، فلم يمالىء، ولم يهادن، ولم يقبل بأنصاف الحلول، وقد تصدى الإسلام للأديان السابقة، بل والبدع اللاحقة، وصَفَّى حسابه معها. فهو قد أكفر يهود وبَرِىءَ منهم، وحاور النصارى وحَجَّهم، وقومه من قريش والعرب وبرىء منهم، ونزعوا كلهم في حربه عن قوسٍ واحدة، فما وَهَنَ له عزم، ولا ركن إلى يأسٍ، ولا تزال قولته الشهيرة إلى عمه أبي طالب وقد نصحه أن يكفَّ من شتمه لآلهة قريش وتَسْفيهِ أحلامهم تفيض بالإيمان: «يا عَمِّ والله لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يَساري على أن أتركَ أمرَ هذا الدِّينِ ما تركتُه حتى يظهرَهُ اللهُ أو أهلِكَ دونَهُ».

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

وقد أعلن الإسلام أنَّه قد جَبَّ أوهام القرون الأولى وطقوسها، فلا غُولَ، ولا عَنْقَاءَ، ولا سِحْرَ ولا كَهَانَةَ، ولا شَعْوذة، ولا عرافة، ولا طِيَرة. وهكذا تحرر العقلُ الإسلامي من الأوهام وطلعت سنابك خيل المسلمين تَجوزُ الأقطارَ من أقصاها إلى أقصاها تُخْرِجُ الناسَ من عبادة الناس إلى عبادة الله الواحد القهار. ولعل هذا في الأسرار التي جعلت كل إقليم فتحه المسلمون وحملوا إليه هذا الدين أن يبقى - رغم المكائد والمحن وضراوة التدبير - منتمياً إلى هذا الدين وهذه الأمة.

أما في حواره مع أهل الكتاب(١)، فقد ربط الإسلام الدِّيانات السماوية كلها برباط واحد، فالرُّسُل كُلُّهُم حق، لا تفريق بينهم، وكلهم بَلَّغُوا عن ربهم، وأدَّوْا الأمانات. وهم جميعاً قد هدوا إلى الطيب من القول والعمل، وهدوا إلى سواء الطريق، وقد أخبر الله الكثير من أعمالهم وأقوالهم وتجاربهم، وساق لنا مواقف إنسانية غاية في الجمال والتأثير. يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

ويتوجه الإسلام إلى أهل الكتاب بهذا التفصيل والمَسِّ الرقيق: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ

---

(١) لمزيد من الوقوف على حيثيات الحوار مع أهل الكتاب ننصح بقراءة كتابنا: الفكر الإسلامي وطرائق النقد الأدبي.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وقد أشار الله تعالى إلى الترتيب المسبق في تدرج الرسالات السماوية تدرجاً يوائم استعداد الإنسانية وعروجها في درجات التقدم والتطور، وإن ما أتى به لم يكن إلا عن سابقِ حكمةٍ وتنظيم. إن ما من نبي كان يُبعث إلا ويعرفُ الكتاب الذي تقدم ويُتِمُّ ما يستطيع، ويتركُ البشائر لمن يتلوه. يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]. وهذا ما يتفق وأبسط القواعد ومعطيات الأمور.

وهكذا تتعالى رسالة الإسلام لتكون عالمية تخاطب العقل الإنساني في كل زمان ومكان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

ويقول الرسول ﷺ: «... بُعثت إلى كل أحمر وأسود، كُلُّكم لآدم وآدمُ من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فرقَ بين عربي وأعجمي، ولا بين أعجمي وعربي إلا بالتقوى. الناسُ سواسيةٌ كأسنانِ المشط، والخلق عيال الله».

وحاور الإسلام مشركي العرب. وقد كان بدهياً والقرآن نزل بلسان عربي مبين أن يتوجه إلى هؤلاء بالدعوة وأن يجري معهم الحوار الذي تفقهه عقولهم. ولم يألُ الإسلام جهداً في الرد على مزاعم هؤلاء وافتراءاتهم حتى لقد انتدب حسان بن ثابت ليرد على هؤلاء في قول الشعر، وينافح عن الدين الجديد وأهله باللغة التي يفهمها هؤلاء

وتؤثر فيهم.

وقد أشار الإسلام إلى عِناد العرب ولجاجهم ومكائدهم. من ذلك ما جاء عن الوليد بن المغيرة المخزومي أنه تشاور مع أصحابه واستطلع رأيهم في محمد ﷺ ففكَّر وقَدَّرَ ونظرَ وبسرَ ثم قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾ [المدثر].

وإلى هذا المعنى بعينه أشار القرآن الكريم حين قال: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ [سبأ]. وأشار إلى النَّضْر بن الحارث بن كَلَدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيّ الذي كان قد رحل في عداوة رسول الله ﷺ إلى فارس وطلبَ ما يكيدُ به الإسلامَ والمسلمين فوجد أحاديث رستم وإسفنديار والفرس فاشتراها وقدم بها مكةَ فجعل يتحدثُ بها، وكان رسول الله ﷺ إذا قام من مقعده خلفه فيه النَّضْر، وحدثهم بتلك الأحاديث[1]، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان][2].

وأشار الله تعالى إلى قول أهل مَكَّةَ من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وبَعْثِ مَنْ مَضَى من آبائهم من الموتى.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ ۝٣١﴾ [الرعد].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١: ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: نزل فيه «النَّضر» ثمان آيات من القرآن. منها قول الله عز وجل: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم].

وأنزل الله تعالى رداً على أهل مكة حين قالوا للرسول ﷺ: خُذْ لنفسك (من الخير): ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠)﴾ [الفرقان].

وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ في ذلك مِن قول أهل مكة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)﴾ [الفرقان] أي: جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا، ولو شئتُ أنْ أجْعَلَ الدنيا مع رُسُلِي فلا يُخَالَفُوا لفعلتُ[1].

وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ فيما قال عبد الله ابن أبي أُمَيَّة[2] ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)﴾ [الإسراء].

ويأتي الرد واضحاً على هذا وأمثاله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾ [الحجر].

وقد وعد الله رسوله ﷺ بتبديل هؤلاء القوم اللُّدِّ أناساً يحبهم

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٣٠٩.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

ويحبونهم قال تعالى: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام] فأبدله الله خيراً منهم بالمهاجرين والأنصار.

وحاور الإسلامُ أهلَ المِلل والنِّحَل والدهريين وأشار إلى خلافاتهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج].

وأشار إلى الدَّهريين فجاء فيه من سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾. وجاء فيه من سورة الجاثية: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

جاءت رسالة الإسلام بالإيمان الكامل وبلغت المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية وتضمنت تصحيحاً للضمائر، وتصحيحاً للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.

وَمُجْمَلُ ما يقال في عقيدة الذات الإلهية - كما يقول العقاد[1] - غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات، فالله يحيط بالزمان والمكان ولا يحدانه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، واحدٌ فردٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ليس كمثلهِ شيءٌ، لا تُدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيفُ الخبير، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

---

(١) كتاب الهلال عدد ٤٢ ص١٤٦.

صاحبي عُمَان[1].

وهكذا قامت الحجة على معاصري رسول الله ﷺ في جميع أقطار العالم المعروفة آنذاك من عرب وغير عرب. وهكذا يلتقي البعدان: النص القرآني والمسلك الالتزامي للرسول ﷺ أو ودولته على أمر قد قُدِر. وإني في هذا المقام لأنظرُ بإشفاقٍ إلى بعض مُتنصِّرةِ العربْ أو الغرب - لا أدري - ممن يشغبون حتى على وضوح الشمس عالية النهار - ممن يُشكِّكون في صحة هذه الوقائع بحجة أنهم يستبعدون أن يكون العرب قد بلغوا من البسطة والمَنَعة وهم لا يزالون محصورين في الجزيرة، ما يحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذ[2]. ومن عجب أن أقوال رسول الله ﷺ في كسرى وقيصر وزوال ملكيهما، كل ذلك قد جاء على نحو ما بشر به رسول الله ﷺ[3] وآلت الأمور إلى ما يُحِبُّ المسلمون، ولم يزل هؤلاء الذين حِيل بينهم وبين تذوق حلاوة الإيمان يجادلون في تواتر وإجماع وتحقيق.

(١) تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص٦٤٤ وما بعدها.

(٢) أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ص٣٣.

(٣) كان رسول الله ﷺ يقول: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لَتُنفقنَّ كنوزَهما في سبيلِ الله عز وجل. ابن تيمية الجواب الصحيح ص١٠٧.

وقد أحاط القرآن بكل الخليقة مبتداها ومنتهاها، فالقرون الأولى عِلْمُها عند الله لا يضل الله ولا ينسى، والطيور والحيوانات والبهائم أممٌ أمثالنا ما فَرَّطَ اللهُ في الكتاب من شيء. وهل أكرمُ في صورة العدل الإلهي من حشرِ امرأة في جهنم ودخولها النار في قطةٍ حبستها لا هيَ أطعمتها ولا هي تركتها تأكلُ من خشاش الأرض، ومن أنَّ بَغِيّاً من بني إسرائيل سقت كلباً عطشان فغفرَ اللهُ لها؟!

هل أوفى من هذا الجزاء الذي يأخذ الله تعالى للضعيف والمظلوم حتى إنّه ليقتص يوم القيامة من الشّاة القَرْناءِ للشّاة الجَمّاء؟ وما أجملَ هذا القولَ وأوقعه في النفوس لمن ألقى السمع وهو شهيد: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

هذا هو البيان القرآني في تكامله وشموله ومخاطبته العقل البشري في كل زمان ومكان. ومن أول يوم للدعوة الإسلامية والرسول ﷺ يتوجه برسالته إلى الناس جميعاً في المغارب والمشارق. وكانت النصوص القرآنية تترى تؤكد هذه العالمية وتلح عليها. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التكوير]. وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القلم].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان].

الباب الثالث

الإعجاز البياني

نزل القرآن الكريم يحاور الإنسان في كل زمان ومكان بلسان عربي مبين. ولو أنَّ قول الله تعالى في محكم الكتاب -: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]. - تُرْجِمَ إلى لغات العالم جميعاً في كل عصر ما انتقضَ جمالُ المعنى ولزوم الحجة في هذا القول المبين. وها نحنُ على ظهر البسيطة لا نكاد نجد زعامتين تتجاوران في إقليم واحد حتى تحتوي إحداهما الأخرى وبعنف

وقال في سورة يوسف: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾.

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۝١٩﴾.

وقال في ذات السورة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام].

وهذه الآيات كلها مكية، أي أن عالمية الرسالة تقررت - كما يقول الشيخ محمد الغزالي - منذ الوحي وفي الأيام التي كانت الدعوة فيها تعاني الأَمرَّين[(١)].

ومن أول يوم وَطَّد الرسولُ ﷺ في المدينة المنورة دولته أنفذَ إلى الناس جميعاً دعوته. فهو قد أنفذ الرسل إلى سائر أقطار الأرض والأمم والملوك. ففي سنة ست للهجرة بعث رسول الله ﷺ الرسل، فبعث في ذي الحِجَّة حاطب ابن أبي بلتعة من لخم حليف بني أسد ابن عبد العزى إلى المُقَوقِس، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى الحارث ابن أبي شَمِر الغَسَّاني، ودِحْية بن خليفة الكلبي إلى قيصر. وبعث سُلَيْط بن عمرو العامري عامر بن لؤي إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، وبعث عبد الله بن حُذَافة السهمي إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضَّمْري إلى النجاشي. وبعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القيس صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جعفر بن جُلُندى وعباد بن جُلُندى الأزديين

---

(١) من مقال بعنوان: عالمية الرسالة للشيخ محمد الغزالي/ مجلة الوعي الإسلامي عدد ١٨ حزيران ١٩٧٧م.

أحياناً غيرَ آبهةٍ بصلات القربى والرحم واعتبارات خُلُقية - حتى لقد قالت العرب: المُلْكُ عقيم[1].

وإذا كان هذا واضحاً جلياً في الهيمنة الأرضية وفي تواريخ البشر وأعرافهم ومنطقهم فكيف يقبل العقل البشري - الوثني والمشرك والمؤمن بتعدد الآلهة - أن تتعدد الزعامات في ملكوت السموات والأرض. إن هذا يتناقض ومنطق الإنسان في حياته الأرضية، فكيف يقبل هذا التناقض في تفسير خلق السموات والأرض؟ ولو قد كان تعدد الآلهة كما يزعم البعض - وخاصَّة العقل اليوناني الذي كان أكثرَ العقول شغفاً في بحث ماهية الوجود وفي تتبع الانسجام والتناسق في الأفكار - إذاً لكان الصدام بين هذه الآلهة أمراً واقعاً ولآلت في النهاية إلى إلٰه واحد تكون له الغلبة والسيادة وإذن يؤول الأمر إلى التوحيد وهو ما تنزل به الله تعالى.

وهكذا، فإنَّ الحُجَّةَ تقوم على الزِّنجي، والنَّبَطي، وعلى الرُّومي، والهندي، وعلى الأوروبي، والأمريكي، وبني البشر جميعاً. وإذا كان هذا الإعجاز يَحُجُّ هؤلاء في المعاني، فإنَّه لَقَبِيحٌ بالعربي الصَّليب، أو مَنْ يُحْسِنُ اللسانَ العربي ألَّا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من جهة المعنى؛ فينبغي من هذه الجهة - كما يقول أبو هلال العسكري - أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده... إذ كانت المعرفةُ بصحة النبوة تتلو المعرفةَ بالله جَلَّ اسمُه[2].

---

(١) أي لا ينفع فيه نَسَبٌ.
انظر: أساس البلاغة لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (دار صادر: بيروت ١٩٧٩م) عقم.

(٢) كتاب الصناعتين ص ص٧-٨.
الصَّليب: من أصلابهم.

وحتى تكون الحجة بالقرآن الكريم قائمة على وجه الدهر، تُعرَفُ في كل زمان، ويتوصل إليها في كل أوان، ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف، ويأثرها الثاني عن الأول - ليظلّ البرهان منه لائحاً مُعْرِضاً لكل من أراد العلم به، وطلب الوصول إليه، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها، والعلم بها ممكناً لمن التمسه، اقتضى ذلك حفظه، والقيام بأداء لفظه، على النحو الذي أنزل عليه، وحراسته من أن يُغَيَّرَ ويُبدَّل[1].

ولما كان القرآن الكريم قد نزل على قلب رجل من قريش وهم أمةٌ أمية قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة] وسواء أكانت الأمية أمية الكتاب المقدس أو قلة انتشار الكتابة فإن الأمرين مرتفقان إذ لو نزل كتاب لأوجد مدارس في الكتابة لأن الكتابة كانت في الماضي رهناً برجال الدين والأحبار والكهنة - فقد كان لزاماً أن يتغلب على عقبات كثيرة تحد من سرعة انتشار النص وتداوله، وبخاصة أمية القراءة والكتابة.

أميّة القراءة والكتابة:

أما مرد قلة انتشار الكتابة فنحسبه لسببين رئيسين:

١- صعوبة الرسم الكتابي في الحروف العربية: فقد كان العرب في الأقطار التي كانت الكتابةُ شائعةً فيها، اقتبسوا من الأبجدية الفنيقية ترتيبها للحروف، ذلك الترتيب الذي ورثته عنها أيضاً جميع الأبجديات السامية الأخرى مضافاً إليها الأحرف العربية الزائدة وهي ستة أحرف: ث، خ،

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص٦.

وواضح أن الاتجاه الجديد كان في الحَثّ على تعلم القراءة والكتابة وأدواتها. بل لقد فادى رسول الله ﷺ أسارى بدر مقابل أن يُعَلِّمَ كلُّ واحدٍ عَشَرَةً من صبيان المدينة القراءة والكتابة - كما هو مستفيض في كتب السير والتواريخ والمغازي[1]. وهذا يعني أن قُدسيةَ القراءة والكتابة والرغبة فيهما جائز أن تعبر حتى على جسور تحفها الأخطار.

وكان أن انتدب رسول الله ﷺ كَتَبَةً للوحي يدونون ما ينزل من القرآن الكريم ويكتبون الآيات على ما تَيسَّر من أدوات الكتابة من رقاع وأكتاف وعُسُب. وكان من الكتبة زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبيُّ بن كعب وعبد الله بن مسعود. قال عثمان بن عفان: «كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض مَنْ كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[2]. وهكذا كان التدوين توقيفاً من رب العالمين وجاء هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

وفي خط مُوازٍ وعلى ذات الدرجة من الحيطة والرغبة سار الإسلامُ على توجيه همم المسلمين إلى حفظ القرآن الكريم في الصدور.

ولم يقتصر الأمر على الحِفْظِ وحده بل جاوزه إلى الطريقة في القراءة

---

(١) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ٢: ٢٢ وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه ممن تعلم من تلكم الطريقة.

(٢) أبو بكر السجستاني - كتاب المصاحف ص٣٢. وانظر محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى ص٤٨. =

ذ، ض، ظ، غ، وقد أطلق العرب عليها اسم «الروادف» مؤلفة كلمتي ثخذ، ضظغ. وكانت كتابة الحروف خالية من النقط حتى سنة ٨٩هـ (٧٠٧م) استطاع نصر بن عاصم الليثي بأمرٍ من الحجاج أن يدخل النقط إلى الحروف العربية[١]، ولعل هذا يفسر لنا كيف أن شاعراً من شعراء المعلقات كطرفة بن العبد يحمل رسالة إلى والي البحرين وفيها حتفه دون ان يَفكَّ الخطَّ، ولعل هذا يفسر كيف أن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما كانتا تنظران في المصحف ولا تكتبان[٢].

٢- صعوبة أدوات الكتابة: وقبل أن يعرف العرب صناعة الورق سنة ٩٠هـ ونقلها عن الصين[٣] فقد كانت أدوات الكتابة بدائية ومعسرة. ومن أدوات الكتابة التي عرفوها: الرَّقُّ وهو الجلد والأديم والقضيم (الجلد الأبيض) والقماش الحرير أو القطن، والنبات وهو العَسِيب جمعه عُسُب وهو السَّعْفة أو جريدة النخل إذا يبست وكُشِطَ خوصها، والرقاع والأكتاف والأقتاب والعظام والحجارة واللِّخَاف والكرانيف (أصول السَّعَف الغِلاظ العِرَاض اللاصقة بالجِذْع)[٤].

إزاء ذلك وجهت الرسالةُ الإسلامية الجهودَ نحو اتجاه جديد لاحتضان الدعوة والحفاظ عليها. ولا غرو فقد كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

---

(١) د. عدنان الخطيب المعجم العربي ص ص١٤-٢٥.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٨.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص٨٩.

(٤) المصدر ذاته ص ص٧٨-٨٣.

التي أنزلت على الرسول ﷺ وبيان القرآن الكريم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد قرأت من فِي رسولِ الله ﷺ سبعين سورة، وقد كنتُ علمت أنه يعرض عليه القرآن في رمضانَ حتى كان عام قُبض فَعُرض عليه مرتين، فكنت إذا فرغ أقرأ عليه، فيخبرني أني محسن[١]. وقال عبد الله بن مسعود: «والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلمُ في أي شيء نزل، ما أحد أعلم بكتاب الله مني، وما أنا بخيركم، ولو أعلمُ مكاناً تبلغه الإبل أعلمُ بكتاب الله مني لأتيته»[٢].

وحتى يولي القرآن الكريم نفسه إلى الرواية الشفوية والالتصاق بالقلب والعلوق بالذاكرة كان القرآن الكريم ذروة مُتَّسقة من الجمال الفني. وعلى ما احتواه من طَرقٍ للموضوعات المختلفة من وعد ووعيد وإخبار وتشريع وقصص ودعوة إلى التفكير وما صرفت فيه المعاني القرآنية من استفهام إلى تقرير ومن استنكار إلى توبيخ إلى تهذيب وتأديب فقد حافظ على سَمْتٍ واحد من حيث جَمال المُوسيقى ورُوائية المبنى والاتساق - وهو ما أحسن التعبير عنه ابن مسعود حيث قال: «إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن»[٣].

وقال ﷺ: «من شاء أن يرتع في الرياض الأنائق فعليه بآل حم»[٤].

إن المتدبر لعوامل التيسير في القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، ليظفر

---

(١) كتاب المصاحف ص١٦، المعجزة الكبرى ص٦٠.

(٢) كتاب المصاحف ص١٦.

(٣) دلائل الإعجاز ص٢٥٣.

(٤) المثل السائر ج٢ ص٣٥٦.

بالكثير المطرب والمعجب على هذه السبيل. فالأرقام التي تقتل الأدب وتجفف رُوَائية السياق والنص، هذه الأرقام تكتسي في القرآن الكريم جمالاً في النسق علاوة على حُسْنِ جمالٍ في الإيقاع حتى لا تملَّ له الإذن سماعاً وترديداً. وحسبك من ذلك قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾. وليجرب من شاء وضع الرقم ٣٠٩ في أي نسق أو سياق ثم فلينظر كم درجة التثامه وجماله بالقياس إلى هذا الذي يعجب ويطرب.

ومن ذلك قوله تعالى من سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة].

وانظر جمال التعداد والتفصيل في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة].

أرأيت كيف يعطي التفصيل من نفسه للقارىء حتى لا يملَّ له ترديداً.

وانظر جمال التعداد والتفصيل في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا

﴿فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف].

وحتى لا تَغْمُضَ الأسماءُ على جيل دون جيل، وتثقل على أصحاب لغة دون لغة من حيث الألفة ومخارج الحروف، كان القرآن الكريم يمر بالحوادث والقرائن من غير ما تصريح للأسماء خلا أسماء محمد وزيد حِبّ رسول الله ﷺ وغير كنية أبي لهب. وواضح أن هذه الأسماء هي ثلاثية أو رباعية ومن ثَمَّ تبقى خِفَّتُها على اللسان واردة في أي لغة وفي أي جيل.

يقول تعالى في أبي بكر رضي الله عنه: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى في عبد الله بن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس] فكان رسول الله ﷺ حيث لقي ابن أم مكتوم قال: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

وفي يوسف عليه السلام وامرأة العزيز: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف].

إن كل ذلك لَمَا يجعل الآيات قريبةً من النفس متلطفة في الدخول إليها وللصوق بالذاكرة. ولذا ليس من عجب أنْ حفظ الصحابةُ الأطهار والتابعون لهم بإحسان - القرآنَ الكريم في صدورهم وكان أن ضرب أبناؤهم أرقاماً قياسية في المنافسة في الحفظ. لقد حفظ محمد بن جرير

والنكبات حية سائرة إلى النماء. ومن كان يدور في خلده أن المغول الذين دوخوا العالم الإسلامي وقضوا على كثير من التراث الفكري واللغوي سيدخلون الإسلام فيصبحوا أداةَ نشرهِ في العالم في العصور الوسيطة. إن ذلك كله مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر]. وهذه بشرى بتكفل حفظ العرب الذين هم أهل هذه اللغة الشريفة التي نزل القرآن الكريم بلسانهم. فليتهم يتدافعون إلى نصرة الله ونشر دينه وتيسير العربية على الناس جميعاً!

جمع القرآن الكريم:

ولعل جولة سريعة في أجواء جمع القرآن الكريم في كتاب واحد وإرسال نسخ من النسخة الإمام إلى الأمصار الإسلامية لتوحي بالأسباب التي هيأت لهذا التكفل بالحفظ والصون والتي لا تدع مجالاً للشك في أن وراء هذا الجهد تدبيراً.

كان الرسول ﷺ يرتلُ القرآن الكريم كما علمه جبريل عليه السلام وكان يقرئه أصحابه، وكان يأمر بتدوينه على ما يتيسر من أدوات الكتابة وفي معظمها العسب والقضيم (الجلد الأبيض) والكرانيف (أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع) والرقاع والأكتاف والأقتاب.

وكان أن انتشر القراء يعلِّمون القرآن الكريم إلى أن كانت حروب الردة وواقعة اليمامة. فعن الزُّهْري عن عُبَيْد بن السَّبَّاق أن زيد بن ثابت حدثه قال: «أرسل إلي أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وكان عنده عمر فقال: إن هذا أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ بالقُرَّاء وإني أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقُرَّاء في سائر المواطن فيذهبَ القرآنُ وقد رأيت أن تجمعوه. فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجِعُني في ذلك حتى شرح اللهُ صدري

الطبري القرآن غيباً وله من العمر سبع سنين، وحفظه محمد بن إدريس الشافعي وله من العمر عشر سنين، وحفظه محمد بن إسماعيل البخاري وهو دون العاشرة علاوة على حفظ الحديث النبوي الشريف.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن الله تعالى يأجر على التلاوة، وأنَّ خيرَ الناس من تعلم القرآن وعلمه وأن الله يجزي القارىء. قال ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ ورتِّل كما كنت ترتِّلُ في الدنيا، فإن مَنْزِلتَكَ عند آخرِ آية تقرؤُها»[1].

وإذا علمنا أن الصلوات الخمس المفروضة علاوة على النوافل يُتعبَّدُ فيها بقراءة ما تَيسَّر من القرآن الكريم مع فاتحة الكتاب[2] تَبيَّنَ لنا الحوافظُ الكثيرة التي عملت على صون القرآن الكريم والحفاظ عليه جيلاً جيلاً. وها نحن في القرن الخامس عشر الهجري والقرآن يتلى صباح مساء، يقرع الآذان، ويصدع النفوس، ويتحدى الإنس والجن ليأتوا بسورة من مثله. ولا يزداد حفظ القرآن الكريم مع تقدم الاكتشافات وتحسين المخترعات العلمية إلا مزيداً من التكفل بالحفظ والصون كي يبقى البرهان من القرآن الكريم لائحاً ومُعْرَضاً لكل أهل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وما من لغة من لغات البشر التي قُدِّرَ لها أن تسع الحضارات إلا ذهبت بذهاب أصحابها إلا العربية، فإنها لم تمحق وبقيت رغم القوارع

---

(١) المثل السائر ج٣ ص١٢٠.

(٢) وينبغي أن نعيد إلى الأذهان أن الأسلاف كانوا يقرأون في الصلوات السور الطوال وإن كان التخفيف جائزاً. كان رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب الأنعام والأعراف وكان عمر يُغَلِّس بالفجر ويقرأ سورة يوسف ويونس عليهما السَّلام. كتاب المصاحف ص١٥٣-١٥٤.

فوجدتها مع خزيمة بن ثابت فأثبتها في سورتها[١].

وكان أن كُتب المصحف الإمام بلغة مُضَرَ. فعن عبد الله بن فُضالة قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمامَ أقعد نفراً من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مُضَرَ فإن القرآن نزل على رجل من مُضَرَ.

جمع القرآن الكريم في خلافة عثمان رضي الله عنه:

عن ابن شهاب الزُّهري، عن سالم وخارجة أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس وكانت تلك الكتب عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى توفي، ثم كانت عند حفصة زوج النبي ﷺ. فأرسل إليها عثمان فأبت أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردنَّها إليها فبعثت بها إليه فنسخها عثمان في هذه المصاحف ثم ردها إليها[٢].

وقد سلك عثمان رضي الله عنه في النسخ ما كان سلكه سلفه عمر رضي الله عنهما إذ قام في الناس فقال: مَنْ كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد عليه شهيدان[٣]. وكان السبب في جمع القرآن ونسخ المصاحف في خلافة عثمان ما استشعره

---

(١) كتاب المصاحف ص٧.

(٢) نفس المصدر ص٩.

(٣) نفس المصدر ص١٠.

عن مصعب بن سعد أن عثمان ناشَدَ الناسَ: أعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لَمَا جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لَسمعتَ رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك: فيقول: نعم. (كتاب المصاحف ص٢٣-٢٤).

للذي شرح الله له صدره ورأيت فيه الذي رأى. فقال أبو بكر: إنك شابٌّ عاقل وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ لانتهمك فاكتبه»[١].

وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليَّ منه... فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف والعُسُب واللِّخاف (الحجارة الرقاق) وصدور الرجال».

ويروي السَّجستاني بإسناد أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد جمع القرآن قام في الناس فقال: مَنْ كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان[٢].

وهكذا أتيح للقرآن الكريم أن يُجمعَ مكتوباً في نسخة واحدة بين يدي كتاب من خلال العسب واللخاف وأن تُعرضَ كل آية على شهيدين من المسلمين العُدول وهو حَدُّ الشهادة في الإسلام.

عن مالك بن أبي عامر الأصبحي جَدِّ مالك بن أنس الفقيه قال: «كنت فيمن أملي عليهم فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلاها من رسول الله ﷺ ولعله أن يكون غائباً أو في بعض البوادي فيكتبون ما قبلها وما بعدها ويدعون موضعها حتى يجيء أو يرسل إليه»[٣].

وفي هذا الجمع يقول زيد بن ثابت: فتتبعت القرآن أنسخه... حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴿١٢٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [براءة] فالتمستها

---

(١) كتاب المصاحف، ص٦.

(٢) نفس المصدر ص ص٧-١٠.

(٣) كتاب المصاحف ص٢٢.

الصحابي حذيفة بن اليمان من خوف الاختلاف بين المسلمين.

فعن الزُّهري عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهلَ الشام في فرج (ثغر) أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فرأى حذيفة اختلافهم في القرآن فقال لعثمان بن عفان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إليَّ بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت إلى عثمان بالصحف فأرسل عثمان إليَّ بالصحف[1]. وقد أرسل عثمان إلى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن الزبير أن انسخوا الصحفَ في المصاحف وقال للرهط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم[2]. قال الزهري: واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوة فقال النفر القرشيون: التابوت وقال زيد: التابوة فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه التابوت فإنه بلسان قريش[3].

ذكر أبو حاتم السجستاني قال: لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف، فبعث واحداً إلى مكة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وآخر إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً[4].

---

(١) كتاب المصاحف ص١٩.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) نفس المصدر ص٣٤.

إن عملية الجمع التي قام بها عثمان كانت استيثاقاً بحيث أن المقابلة بين الجمعين كانت متوافقةً مئة بالمئة. يقول القرطبي: إنه بعد الجمع الذي قام به زيد بأمرِ عثمان وعاونه المؤمنون الحافظون، قد رُوجع على مصحفِ حفصةَ رضي الله عنها، وكانت هي المقياس لصحته، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تَبيَّنَتْ صحتهما بصفةٍ قاطعة لا ريب فيها[1].

وهكذا أُتيح لِبُعْدي الحِفْظِ والكَلام أن يلتقيا على صعيدٍ واحد وأن يُقْرنا معاً، فكان المكتوب متواتراً بالكتابة ومتواتراً بالحفظ في الصدور، وما تم هذا - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - لكتابٍ في الوجود غير القرآن[2].

---

(١) المعجزة الكبرى ص٤٠.

(٢) نفس المصدر ص٣٥.

الباب الرابع
العربية والبيان

لمَّا كان أمر الحفاظ على النص قد ثبت بتواتر وعزائم تضمنُ ديمومته حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها، فإن أمر الاقتراب من النص ومعرفة أسراره وبيانه يبقى بغية المسلم وضالته. فإن كان المسلم أعجمياً فهو مأمور أن يعبر أسرارَ القرآن الكريم من خلال اللسان العربي، وإن كان المسلم عربياً فينبغي أن يعرف إعجاز كتاب الله تعالى من حيث البلاغةُ اللغوية، ومن حيث البيانُ العقلي.

ولمَّا كان القرآن الكريم قد شهد للعرب على عهد النبي ﷺ بالفحولة اللغوية والجدال العقلي[1] ولمَّا كان العرب قد سجلوا انطباعاتهم عن القرآن الكريم يوم كانت تتنزلُ منه الآيات فإننا نزداد بصراً بالإعجاز البياني اللغوي من حيث نكونُ من لسان العرب أشدّ قرباً. وقد لمس العلماء المسلمون هذا الاستشعار إلى العربية لدرجة كان يقول معها أبو عمرو بن العلاء: «لَعِلْمُ العربية هو الدينُ بعينه»[2]. وكان عمر بن

---

(1) قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم]، وقال: ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون].
وطالع حالَ قريش في بلاغة المنطق. البيان والتبيين ج١ ص٢٢.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون ج١ ص ص٥٣-٥٤.

الخطاب يقول: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أَصَحُّ منه»[1].

إنَّ مقابلة القرآن الكريم بالنصوص العربية على عهد البعثة النبوية لَيُبَصِّرُ الباحث بالرفد الكثير من اللطائف التي خُصَّ بها القرآن الكريم والتي كانت وراء إذعان العرب وتسليمهم. بل إن محاولة الوصول إلى استجلاء صورة العربية قبل الإسلام والوقوف على منحى لهجاتها ليميط اللثام عن أسرار كثيرة من أسرار التدبير الإلهي الذي رتب لهذا الدين أن يكون في هذا المناخ وتلك الفترة[2].

وكلما نظر المسلم بعيني المعاصر لنزول القرآن كان أقربَ إلى استجلاء لطائف كثيرة ذات صلةٍ بالعربية وأساليبها في القول. وكلما نظر المسلم بعيني المعاصر لنزول القرآن المتدبر لآياته كان أقربَ إلى مواطن التنزيل.

يروي أبو بكر السِّجستاني عن عمر رضي الله عنه قوله: «كان رسول الله ﷺ يَسْمُر عند أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين، وأنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه فخرج رسول الله ﷺ يمشي وخرجنا معه نمشي، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يسمع قراءته. فلما كدنا أن نعرف الرجل قال: «مَنْ سَرَّه أن يقرأ القرآنَ رَطْباً كما أُنزلَ فليقرأْهُ على قراءة ابن أُمِّ عبد»[3] يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ويروي الشاعر المسلم محمد إقبال نصيحة والده له حيث كان يقول: اقرأ

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ج١ ص٢٤.

(٢) انظر في تفصيل ذلك كله: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية تحت باب: الصـ الأدبية للقرآن.

(٣) كتاب المصاحف، ص١٣٧.

القرآنَ كأنه يَتنزَّلُ عليك.

إن ذلك لما يقرب من مناخ تنزلات الرسالة ويقف المسلم على غايات ومقاصد كثيرة مما يتصلُ بدلالات العربية وطرائقها.

دور الشعر في الوقوف على أسرار الإعجاز:

لمَّا كان الشعر ديوان العرب وميدان القوم إذا تَجارَوْا في الفصاحة والبيان، كان محالاً أن يعرف كون القرآن الكريم معجزاً من جهة الفصاحة إلا من عرف الشعر - كما يقول الإمام عبد القاهر[١].

وفي الشعر يقول الرسول ﷺ: «إنَّ من الشعر لَحِكْمَةً، وإنَّ من البيان لسحراً»[٢] وقال الرسول ﷺ لحسان: «قُلْ ورُوحُ القُدُس معك»[٣].

وقد استنشد كعبَ بن مالك وهو راكب ناقته، فأنشد الأبيات التي أولها:

قَضَينا مِنْ تِهَامَةَ كلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبَرَ، ثُمَّ أجممنا السُّيوفَا
تُخَيِّرُهَا، ولو نطقت لقالتْ ... قَواطِعُهُنَّ دَوْساً أو ثَقِيفَا

فأنشد الكلمة كلها. فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لَهِيَ أشدُّ عليهم من رشق النبل»[٤]. قال ابن سيرين: فنبئت أن دَوْساً إنما أسلمت

---

(١) دلائل الإعجاز ص٦. دلائل الإعجاز. قرأه محمود محمد شاكر ط٢ (مطبعة المدني القاهرة ١٩٨٩م) ص٩. وسأعود إليه باسم: دلائل الإعجاز (شاكر).

(٢) دلائل الإعجاز (شاكر) ص١٦، نفس المصدر ص١١.

(٣) دلائل الإعجاز ص١١، دلائل الإعجاز (شاكر) ص١٧.

(٤) دلائل الإعجاز ص١٢. طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢١ وفيه: الرَّيب: الحاجة. أجممنا: أرحنا. يعني: أراحوا السيوف فأغمدوها. ودَوس وثقيف القبيلتان =

بكلمة كعب هذه[1].

ويروى أنه ﷺ قال لكعب(بن مالك): «ما نسيَ ربُّكَ، وما كان ربك نسياً، شعراً قُلْتَهُ. قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: أنشده يا أبا بكر. فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه:

زَعَمَتْ سَخِينَةُ[2] أنْ سَتَغْلِبُ ربَّها وَلَيُغْلَبَــنَّ مُغَــالِــبُ الغَــلاَّبِ[3]

أما علمه ﷺ بالشعر فكما روي أن سَوْدَةَ أنشدت: «عَدِيٌّ وَتَيْمٌ تبتغي مَنْ تُحَالِفُ»، فظنت عائشةُ وَحَفْصَةُ رضي الله عنهما أنها عَرَّضت بهما. وجرى بينهن كلام في هذا المعنى، فأُخبرَ النبيُّ ﷺ فدخل عليهن فقال: «يا وَيْلَكُنَّ! ليس في عَدِّيكُنَّ ولا تَيْمِكُنَّ قيل هذا، وإنما قيل هذا في عَدِيٍّ تميمٍ وتَيْمِ تَميم».

وتَمام هذا الشعر:

فَحَـالِـفْ، ولا وَاللهِ تَهْبِـطُ تَلْعَـةً مِنَ الأرض إلا أنْتَ للذُلِّ عَارِفُ
ألاَ مَنْ رأى العَبْدَيْنِ، أو ذُكِرَا لَهُ؟ عَدِيٌّ وَتَيْمٌ تَبْتَغي مَنْ تُحَالِفُ[4]

= المشهورتان: ثقيف بالطائف ودَوس بجبال السَّراة.

(١) دلائل الإعجاز ص١٢ (الحاشية).

(٢) سخينة: لقب تُنْبَزُ به قريش، لأنها كانت تأكل السخينة وهي طعام من دقيق الشعير واللحم ويسخن وذلك في أيام المجاعات. والحديث رواه ابن عساكر بإسناد عن جابر. نفس المصدر ص١٣ الحاشية.

(٣) نفس المصدر ص١٣. دلائل الإعجاز (شاكر) ص١٧.

(٤) دلائل الإعجاز ص١٥. دلائل الإعجاز (شاكر) ص٢٠. وبهامشه: تيم قريش: منهم أبو بكر الصديق، وعَدِيُّ قريش: منهم عمر بن الخطاب ولذلك غَضِبت أُمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، وحفصة أم المؤمنين بنت عمر من سودة بنت=

وأما ارتياحه ﷺ للشعر واستحسانه له، فقد جاء فيه الخبر من وجوه: من ذلك حديث النابغة الجعدي قال:

أَنْشَدْتُ رَسولَ الله ﷺ قولي:

بَلَغْنَا السَّماءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنا   وإنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال النبي ﷺ: «أينَ المَظْهَرُ يا أبا ليلى؟».

فقلت: الجَنَّةُ يا رسولَ الله. قال: «أجل إن شاء الله». ثم قال: أنشدني، فأنشدته من قولي:

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ، إذا لم تَكُنْ لَهُ   بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خَيْرَ في جَهْلٍ، إذا لم يَكُنْ لَهُ   حَليمٌ إذا ما أوْرَدَ الأمْرَ أصْدَرَا

فقال ﷺ: «أجَدْتَ، لا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ»[1].

وعن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول: أبْيَاتَكِ فأقول:

ارْفَعْ ضعيفَكَ لا يَحُرْ بِكَ ضَعْفُهُ   يوماً، فَتُدرِكُهُ العواقِبُ قد نَمَا
يَجْزِيكَ أو يُثْنِيْ عَليكَ وإنَّ مَنْ   أثْنَى عليك بما فعلتَ فَقَدْ جَزَى[2]

= زَمْعَة. والتلعة: مسيل في أعلى الوادي. وقوله: «عَارِفُ» من قولهم: عرف للأمر: صبر له وذَلَّ وانقاد.

(١) دلائل الإعجاز ص١٦. دلائل الإعجاز (شاكر) من ص٢١-٢٢ وفيه: قال الراوي: فنظرت إليه، فكأنَّ فاه البَرَدُ المُنْهَلُّ، وما سقطت له سِنٌّ ولا انْفَلَّتْ. وبهامشه: يروى الشعر لورقة بن نوفل ولغيره.

(٢) دلائل الإعجاز ص١٤.

وقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) التي أنشدها بين يدي الرسول ﷺ واستحسانه لأبياتها حتى كان رسول الله ﷺ يُشيرُ إلى الحِلَق أن اسمعوا[١]، دليلٌ آخر يضاف إلى علم الرسول ﷺ بالشعر واستحسانه له.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۝٦٩﴾ [يس] فليس المَنْعُ في ذلك مَنْع تَنزيه وكراهة - كما يقول الإمام عبد القاهر - بل سبيل الوزن في منعه عليه السلام إياه سَبِيلُ الخَطِّ، حين جُعِلَ عليه السلام لا يَقْرأُ ولا يكتب، في أن لم يكن المنع من أجل كراهة في الخَطِّ، بل لأن تكون الحجة أبهرَ وأقهرَ، والدَّلالةُ أقوى وأظهرَ، ولتكون أكعَم للجاحد، وأقمعَ للمعاند، وأرَدَّ لطالب الشبهة[٢]. وقد استثنى رب العالمين من الشعراء المؤمنين، قال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢٢٧﴾ [الشعراء].

وقد تَمَثَّلَ الخليفة عمر رضي الله عنه بشعر عُمَارَةَ بن الوليد[٣].

أَسَـرَّكَ لمـا صُـرِّعَ القَـوْمُ نَشْـوَةً   خُـروجيَ منها سـالماً غَيـرَ غَـارِمِ
بـريئـاً كَـأنِّـيْ قَبْـلُ لـم أكُ مِنْهُـمُ؟   وليس الخِدَاعُ مُرْتَضَىً في التَّنَادُمِ

وكان الحسن البصري رحمه الله يتمثل في مواعظه بالأبيات من الشعر.

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٧، وطبقات فحول الشعراء ج١ ص١٠٣، وكان رسول الله ﷺ يكونُ من أصحابه مكانَ المائدةِ من القوم يتحلقون حَلْقةً دون حَلْقَةً فيلتفت إلى هؤلاء وإلى هؤلاء.

(٢) دلائل الإعجاز ص٢٠ وانظر صبح الأعشى ج١ ص٥٩. دلائل الإعجاز (شاكر) ص٢٧ وبهامشها: «أكعم» «مِنْ كَعَم البعير»: إذا شَدَّ فاه بالكَعام عند هياجه، أو لأجل منعه من الأكل.

(٣) دلائل الإعجاز شاكر ص١٣.

وكان من أَوْجَهِهَا عنده:

اليـــومَ عِنْـــدَكَ دَلُّهـــا وَحَـــدِيثُهَـــا وَغَـــداً لِغَيْـــرِكَ كَفُّهـــا والمِعْصَـــمُ[1]

(يقصد الدنيا).

(١) دلائل الإعجاز ص٩.

الباب الخامس

أساليب البيان

إذا كانت أساليب البيان في الكثرة الكاثرة من حيث تصحيح الأقسام، وحسن الترتيب والنظام، والإبداع في التشبيه والتمثيل، والإجمال ثم التفصيل، ووضع الفصل والوُصَل موضعهما، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما[(١)]، فإن أول ذلك وأولاه: القولُ على (التشبيه والتمثيل والاستعارة)، فإن هذه - كما يقول الإمام عبد القاهر - «أصولٌ كبيرة كان جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها، وراجعة إليها. وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها»[(٢)].

تنوير:

ما من امرىءٍ في هذا الكون، حَباهُ الله عقلاً راجحاً، إلا وله تصور عام يحيط بالكون والأحياء، ويربط المخلوقات بعضها ببعض، وكلما ازداد المرء بالأشياء خبراً، وكلما أرهف الحس، وحدد البصر، ليجدنَّ الصورةَ أكثر إشراقاً، وأوضح رؤية.

وهكذا تنعكس الحقيقة الكونية على نفوس الناس المتباينة صوراً شتى،

---

(١) دلائل الإعجاز ص٤٠ والبيان والتبيين ج١ ص٧٣.

(٢) أسرار البلاغة ص٢٦.

بعضها المُضيء، وبعضها المعتم، بعضها المجزأ، وبعضها المتكامل. والتكامل هذا ليس وليد العقل وحده، بل يسعى به العقل والقلب والشعور والإحساس. وفي هذه الميزة وحدها يفضُلُ الإنسانُ سائر الحيوان، ويرتقي على العجماوات، بل هذه الميزة أيضاً يفضُل الإنسانُ العاقلُ البالغ غيره من بني الإنسان مِمَّنْ حُرِمَ هذه النعوت والصفات. المرء يسمع ويرى ويحس ويتأمل، ثم يأتي العقل الواعي ليشد الشيء إلى شبهه، والمتجانس إلى رفقه، ويسلك ذلك كله في نظام متسق، تنزاح من أمامه التناقضات، وتُحَلُّ معه الطلاسمُ والرموز.

وبعبارة أخرى نقول: إن العقل يُوحِّدُ بين المدركات والانطباعات، ويجعل منها صورة واحدة كلية تحتوي الأشياء والعلاقات ولا تذيبها، بعكس الحيوان أو الطفل الذي يسمع ويرى ويحس ويتألم، لكنه يقف على عتبة الجزئيات، ولا يتجاوزها، ذلك أن ملكة العقل التي تقيم العلاقات، وتبني الوشائج والصلات، وتلمح أوجه الشبه، وتصنف وتنظم، تكاد تكون متغيبة. لذا فإن العقل الإنساني الناضج وحده هو الذي يقدر على بناء نظام متكامل من الرؤية تحيط بالعوالم والحياة، وتدرك المجرد والمحسوس، وتنطلق إلى العلة من المعلول. وهذا العقل وحده القادر على النفاذ من عالمنا الصغير إلى عوالم أوسع وأرحب. ولعلَّ ذلك وحده يفسرُ تكليفَ الإنسان لأمانة المسؤولية، ووضعه أمام الجزاء والثواب والعقاب، فهو وحده الذي يسلسل العواقب، ويعرف النتائج، ويتبين الرؤية من مكان بعيد، ولا كذلك الأعجم أو الطفل أو المجنون[١].

---

(١) من أراد التوسع في هذه التفصيلات فليراجع كتابنا: الفكر الإسلامي.

مناهج البحث:

وقد تنوعت مناهج التفكير ووسائل البحث عن الحقيقة الأزلية التي ينضوي تحتها ناموس العالم، فنزل سقراط إلى الشارع يسأل الحُوذيَّ والحَمَّال، ويتلمَّسُ المعرفةَ في الفطرة الإنسانية وأسرارها، موقناً أن النفس ذاتها قبس من السر العظيم الذي به تتسق الحياة.

وفزع أفلاطون إلى عالم سحري يموج بالغرائب والعجائب: عالم علوي هو أصل، وما دونه فهو ظل خافت، وتصبح محاكاةُ الأشياء في منطقه ظل ظل وقد رأى هذا أن العمر قصير، ويمضي الأفراد في هذا الحياة دون أن تتحقق رغباتهم، وإذاً فلا بد من حياة أخرى يرشف منها المرء سعادة ولا يكاد يرتوي. وإذا كانت حياتنا تمضي بلا ثواب أو عقاب عادلين، فلا بد والحالة هذه من أن يعقب ذلك حياة يصفى فيها الحساب، وتعاد الأمور فيها إلى أنصبتها الصحيحة.

ونزل أرسطو الساحة، وكان من رأيه أن الفلاسفة لمسوا بعض الحقيقة، لكنهم ضلوا الأداة والسبيل، فأفلاطون يفسر الكائنات بمثل قائمة بذاتها مستغنية عما سواها فضلَّ صاحبه الطريق، لأن تفسير الشيء لا يكون بشيءٍ خارجٍ عنه، ولأن المثل هي أجناس كلية، ولا وجود لها خارج أذهاننا إذ لا وجود في الواقع إلا للجزئيات. ولم يهتد فيثاغورس إلى تفسير الكائنات المادية عن طريق الخصائص الرياضية التي هي في الواقع مفاهيم ذهنية مجردة.

ومن لدن سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلاسفة يُجَرِّبونَ ويفترضون ويشرحون ويبنون، لكن جهودهم ما تكاد تُبنى حتى تُنقض، وما يكاد أحدهم يجد تفسيراً حتى يجد الآخر له نقضاً، وهكذا سُطِّرتْ صفحاتٌ

وامتلأت مجلدات وقامت بديهيات وافتراضات ثم مقدمات وأبنية منطقية وأقيسة لم تثبت إلى قرار، ولم تصمد للزعازع والأفكار. المرء يغير رأيه، وينسلخ من افتراضاته، والثاني يبطل الأول، والمعركة لها أول ولا آخر لها، ثم أنَّى لنا بالاقتناع والتحقيق وأقيسة الفلسفة لا تذلُّ للتجربة كما ذل العلم؟! إن محاولات العقل المجرد قد ارتدت كلها حسيرةً كليلةَ الطرف، وبقيت زمر الفلاسفة والعقلانيين تحت قبة السماء تقذف بالغيب وترجم بالظنون من مكان بعيد، فلا هي أبصرت، ولا هي دَرَتْ أو وعت ما رأت. ومات أغلب هؤلاء في حيرة الشك وعمى الضلالة، وتلبيس التخليط، وقَلَّ أنْ تجد أحداً منهم أصر على ما فعل إلا وتبدت له الحياة عقماً وجدباً، وإلا تراءت له خواء وجفافاً، وإلا حَدَّثته النفسُ بالتردي والانتحار[1].

ومن جهة أخرى كان هناك أفراد تواصلوا بالحق، وتطهروا من الدنس والبوائق، ونزَّهوا الله عن كل نقيصة، وتاقوا بأرواحهم إلى الملأ الأعلى، وتقدموا إلى ربهم بقلوب مؤمنة، ونفوس خاشعة، وأصوات خافتة، وتواضع جَمٍّ، ففاضت عليهم إشراقات الذات العلية، وذاقوا حلاوة الطاعات، وظفروا ونالوا، واطمأنوا إلى النوال. أتتهم التجليات وحياً، أو من وراء حجاب، فمنهم مَنْ كَلَّم الله، ومنهم مَنْ أتته الملائكةُ قبيلاً، ومنهم من أُلقيتْ إليه الألواحُ بلغته، ومدى استعداده، ومنهم من لقي

---

(١) في سر الفصاحة أبيات أوردها الخفاجي تحكي حال هؤلاء الفلاسفة:

وفي الفلاسفة الماضين معتبر ... فطالما قصدوا فيها وما عسفوا
ولقد أتوك بِمَيْنٍ من حديثهم ... يكاد يضحك منه الحبر والصحف
ظَنٌّ بعيد وأقوالٌ ملفقة ... تَخْفى على الغمر أحياناً وتنكشف
الأمر أكبر من فكر يحيط به ... والعمر أقصر أن يلقى له طرف
وما رضيت بعقلي في جدالهِمُ ... ولا توهمت إلا غير ما وصفوا

صحفاً وأسفاراً، ومنهم من رأى الرؤيا، فاستوت في التحقيق والتصديق كفلق الإصباح.

وقد هدي هؤلاء جميعاً إلى القول الطيب والعمل المثمر، ودعوا إلى مكارم الأخلاق، وتنادوا بنصب العدل، وإقامة الموازين، ما نَدَّ أحدهم عن ذلك، ولا شذ، ولا خرج مغاضباً أو مغالطاً، إنما هي الطمأنينة والإذعان والتسليم، حتى لَنجدنَّ امرءاً أُشربتْ روحهُ بتعاليم ربه لا هو بالنبي ولا بالرسول، وهو الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول بلهجة المطمئن الواثق: لو ضاع مني عقال بعير ما نشدته إلا في كتاب الله. هذه الرؤية الكلية الواضحة التي تنزاح من أمامها الأوهام، وتختفي وراء شمسها التناقضات والمسافات والأبعاد، وإلى مثل هذا أشار رب العزة في محكم الكتاب - وهو أعلم - حين قال: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

ولما كان عالم الله غير عالمنا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] ولما كان الله تعالى هو وحده الذي يجوز الأبعاد الزمانية والمكانية ويحد الزمان والمكان، ولما كانت اللغة - أي لغة - هي انعكاس المدركات والتعبير عنها والتعامل معها، استلزم أن يكون هناك فجوة بين اللغة من حيث قصورها عن أن تُلِمَّ بالحقائق العلوية التي لم تول نفسها للمدركات وهو ما عبر عنه الإمام أبو حامد الغزالي حين ذكر التصوف ومقاماته:

قد كان ما كان مما لستُ أذكرُهُ فظُنَّ خيراً ولا تسألْ عن الخَبَرِ

إن اللغة هي مجموعة من المدركات الحسية والمعنوية المشتقة منها فكيف ثمة يحيط المدرك بما لا يدرك. ثم إن العقل الإنساني يعلم القليل

من علم الله، والكثير الكثير سيبقى محجوباً بعوامل كثيرة[1]. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف]، وقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان].

إزاءَ ذلك كله شاء الله تعالى أن يقرب إلى الناس جميعاً - عربهم وعجمهم، عوامهم وخواصهم، حاضرهم ومقبلهم - من خلال ضرب الأمثال وسوقِ القصص وذكر الأخبار واستخدام التشبيه والتمثيل والمجاز. ومن ثم فإن المقاصد العلوية تنعكس على نفوس الناس بقدر صفائهم واستعدادهم ومدركاتهم. وهكذا يكون الاقتراب من النص القرآني مستويات، ويظل التفاوت قائماً حتى تقوم الساعة وتنجلي الأمور على حقيقتها وبكلياتها. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين»: «إنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم، وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حدٌّ في الترقي من درجة إلى درجة أعلى منها. فأما الاستيفاء فلا مطمعَ فيه، ولو كان البحرُ مِداداً والأشجار أقلاماً، فأسرار كلمة الله عز وجل لا

(١) يقول مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية: إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض حيث يخضع كل شيء لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن دائماً هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية، ص١٨٢.

نهاية لها»[١].

وينقل ضياء الدين بن الأثير قول الغزالي في كتابه الموسوم بـ «الجواهر والأربعين» إلى إشارته «أن في القرآن إشاراتٍ وإيماءات لا تنكشفُ إلا بعد الموت»[٢].

إن التشبيه والمجاز في القرآن الكريم قد استحضرَ الحقائقَ والأسرار العلوية من خلال أقصى درجات الإشراق والتوهج ووفرة الاحتمالات وقوة التكبير ودرجة الإحساس. وبقدر ما يكونه المرء من التهاب الطبع وحِدَّة القريحة بقدر ما يتغلغل في الأسرار، وبقدر ما تكون له ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفي[٣].

ولما كان الإنسانُ هو مدارَ الأمر ومناطَ الفهم وكان كلُّ ما في الوجود قد سُخِّرَ في خدمته وتحت هيمنته وسطوته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج]، فإن درجات التقريب والإيضاح وضرب الأمثال وتصريف المعاني إنما كان الإنسان من خلال منافذ الفهم فيه والاستيعاب هو المدارَ والمقصدَ.

وسنتبيَّنُ في منهج التشبيه القرآني والمجاز القرآني كيف وُظِّفَتْ عوالم الإنسان ومناخاته ومدركاته في النفاذ إلى المقاصد الإلهية حتى ليستطيع المسلمُ المتذوقُ لحلاوة الطاعات الراغب في الله أن ينفذ من عالمه الصغير من خلال الهدى إلى وجوه الشبه والإيماءات بحيث يدرك مقاصد

---

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٢٦٣، المعجزة الكبرى ص٦٠٧.

(٢) المثل السائر ج٣ ص٦٣.

(٣) انظر دلائل الإعجاز ص٢٩٣، ٢٩٦.

الله تعالى في كل أموره ودنياه[1]. يقول تعالى في حديث قدسي: «ما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إلي بالنَّوافل حتى أُحِبَّهُ فإذا أحببتُه كنت سمَعُه الذي يسمعُ به وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ به ويدَهُ التي يَبْطِشُ بها ورجْلَهُ التي يمشي بها».

التشبيه:

وهو الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ في معنى[2]. ومن أدواته الكاف، وكأنَّ، ومِثْلُ، وما في معناها[3]. ويجري التشبيه في صور كثيرة تفهم من طبيعة السياق، من ذلك: المبتدأ والخبر كقول النبي ﷺ: «الكَمْأةُ جُذْرِيُّ الأرض»[4] والمصدر المبين للنوع نحو: أقدم إقدامَ الأسد[5]. والمضاف والمضاف إليه، كقول النبي ﷺ: «وهل يكُبُّ الناسَ على مناخِرِهم في نار جهنمَ إلاّ حصائِدُ ألسنتهم؟» كأنه قال: كلام الألسنة كحصائد المناجِل[6] أو التناسب بواسطة التَّهكُّم كأن يقال للجبان: ما أشبَهه بالأسد[7]!

---

(١) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل]. ترى أليس هناك من حركة أسرع من لمح البصر؟ الواقع أن هناك مالا نهاية من تجزئة اللمحة لكن الله تعالى قرب إلى الإنسان من خلال بصره لأنه مدار هذا الأمر أعني الإفهام والتفهيم أو البيان والتبيين.

(٢) القزويني، تلخيص المفتاح ص٢٢٤، الخفاجي سر الفصاحة ص٢٩٠، وانظر: The Lively Rhetoric, P.235.

(٣) تلخيص المفتاح ص٢٤٢.

(٤) المثل السائر ج٢ ص١١٧.

(٥) نفس المصدر ص١٢٦.

(٦) نفس المصدر ص١١٨.

(٧) تلخيص المفتاح ص٢٤١.

وواضح أن للتشبيه طرفين أو ركنين هما المشبه والمشبه به. وقد يأتي التشبيه مُظْهرَ الأداة أو يأتي مُضْمرها يجمعهما بيتا البُحْتري:

ذات حُسْنٍ لو استزادتْ من الحُسْـ ـنِ إليه لَمَا أصابتْ مَزِيدا
فهي كالشَّمسِ بهجةً والقَضِيبِ الـ لَدْنِ قَدّاً والرِّيمِ طَرْفا وجِيدا[1]

ويرى الخَفَاجي أن التشبيه بغير حرف على ظاهر المعنى يُستحسنُ لما فيه من الإيجاز[2] وذلك كمثل قول أبي القاسم الزاهي:

سَفَرْنَ بُدوراً، وانتقبْنَ أهِلَّةً وَمِسْنَ غُصُوناً، والْتَفَتْنَ جَآذِرا

وقال الوأواء الدمشقي:

واسْتَمْطَرَتْ لؤلؤاً مِنْ نَرْجِسٍ فَسَقَتْ وَرْداً، وَعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ[3]

وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ وقد سئل عن العَزْل فقال: «هو الوأد الخَفِيُّ»[4].

وأعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة باعتبار أركانه كلها أو بعضها هو حذف وجهه وأداته[5] وهو التشبيه البليغ.

في قولنا: زيد كالأسد في الشجاعة - واضح أن زيداً والأسد اشتركا في صفة معينة وهي الشجاعة، والشجاعة هي سِمَةٌ بارزة في الأسد، ولا شك أن هذا البروز سيكون له انعكاس إيجابي على زيد. ولسنا مَعْنيين

---

(١) المثل السائر ج٢ ص٣٦٨.
(٢) سر الفصاحة ص٢٩٠.
(٣) انظر سر الفصاحة ص١٣٥ وينسب البيت الأول لديك الجن، ص٢٩٨.
(٤) المثل السائر ج٢ ص١٥١.
(٥) تلخيص المفتاح ص٢٥٩.

بالبحثِ عن وجه التقاء بين زيد وبين الأسد بأكثر مما يريده النص بحرفيته وإلا نكون كمن حَوَّلَ الأمر عن مقصده ورام غير الذي قدم. بل إن محاولة تحميل النص أكثر مما يحمل ليعطي زيداً المزيد من صفة الحيوانية التي هي هنا إلى الذم والتعريض أقرب منها إلى الإطراء والمديح. وما نظن أن أحداً يُحِبُّ أن يُشَبَّه الممدوحُ بأنَّ له ذيلاً كالأسد أو أن يمشي على أربع أو غير ذلك من فضول المجانبة للمقصود[١].

إن الشجاعة هي وجه الشبه بين الاثنين وفيما سوى ذلك يبقى لكلٍّ خصوصيتهُ وذاتيته.

والتشبيه يأتي على ضربين:

١- أن يكون من جهةِ أمرٍ بَيِّنٍ لا يُحْتَاجُ فيه إلى تأوُّلٍ.

٢- أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول.

فمثال الأول: تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو أن يُشَبَّه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه، وبالحلقة في وجه آخر. وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدودِ بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار. أو جمع الصورة واللون معاً كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور. وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه القَدِّ اللطيف بالغصن. ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه من تأخذه الأريحية فيهتز بالغصنِ تُحَرِّكُه ريحٌ ونحو ذلك. وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس[٢] نحو تشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيره

---

(١) انظر في مناقشة ذلك المثل السائر ج٣ ص٥٢.

(٢) المدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة: البصر والسمع والشم والذوق واللمس.

كتشبيه أطيطِ الرَّحْلِ بأصوات الفراريج، وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر، وتشبيه اللين الناعم بالخز. وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما. فالشبه في هذا كله بَيِّنٌ لا يجري فيه التأول ولا يفتقر إليه في تحصيله(١).

ومثال الثاني: وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول كقولك: «هذه حجةٌ كالشمسِ في الظهور» وقد شُبّهت الحجة بالشمس من حيث ظهورها. وهذا التشبيه - كما يقول الإمام عبد القاهر - لا يتم إلا بتأول، وذلك أن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحولُ بين العين وبين رؤيتها. ثم تقول: إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما ادعى من الحكم: قيل: هذا ظاهر كالشمس(٢).

ثم إنَّ ما طَرِيقُهُ التَّأَوُّل يتفاوتُ تفاوتاً شديداً. فمنه ما يَقرُب مأخذه - كما يقول الإمام عبد القاهر - ومنه ما يُحتاجُ فيه إلى قدرٍ من التأول، ومنه ما يَدِقُّ ويغمضُ حتى يحتاجَ في استخراجه إلى فضلِ رَوِيّة ولطفِ فكرة. فمما يشبه الأول قولهم في صفة الكلام: ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة. يريدون أن اللفظ لا يستغلقُ ولا يشتبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه، وليس هو بغريبٍ وحشيٍ يُستكره لكونه غير مألوف، أو ليس في حروفه تكريرٌ وتنافر يكد

---

(١) انظر: أسرار البلاغة ص٨٢ وانظر: تلخيص المفتاح ص٢٤٠.

(٢) نفس المصدر ص٨٣ وانظر: تلخيص المفتاح ص٢٤١.

اللسان، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغُ في الحلق، والنسيم الذي يسري في البدن ويُوجِدُ في الصدر انشراحاً ويفيدُ الناس نشاطاً وكالعسل الذي يلذ طعمه وتهش النفس له ويميل الطبع إليه. فهذا كله - كما يقول الإمام عبد القاهر - تأوُّلٌ وردُّ شيءٍ إلى شيء بضربٍ من التلطف، وهو أدخلُ قليلاً في حقيقة التأول[1].

وأما ما تقوى فيه الحاجةُ إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الأشقري وقد أوفده المُهَلَّبُ على الحَجّاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس فسأله: فأيهم كان أنجدَ؟ قال: «كانوا كالحَلْقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفاها». فهذا كما ترى - كما يقول الإمام عبد القاهر - ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر. ألا ترى أنه لا يفهمهُ حَقَّ فهمه إلا مَنْ له ذهنٌ ونظر يرتفع به عن طبقة العامة. وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فإنه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستويَ في فهمه اللبيب اليَقِظ والمضعوف المغفل. فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله: هم كالحلقة، فلا تراه إلا في الآداب والحِكَم المأثورة عن الفضلاء[2].

ومثل ذلك البيت:

أيقتُلُني والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ

وأنياب الأغوال مما لا يدركها الحِسُّ لعدم تحققها وهي لذلك مبنية

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص٨٤.

(٢) انظر نفس المصدر والصفحة. وانظر أبو زيد البلخي، البدء والتاريخ ج١ ص٢٣.

على قوة التوهم[1].

أغراض التشبيه:

التشبيه هو فتحُ بابٍ على المجهول من خلال المعلوم، إذ أنَّ أُنسَ النفوس موقوفٌ - كما يقول الإمام عبد القاهر - على أن تخرجها من خَفِيٍّ إلى جلي، وأن تَرُدَّهَا في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يُعْلَمُ بالفكر إلى ما يُعلَمُ بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضلُ المستفادَ من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا «ليس الخَبَرُ كالمُعايَنَةِ، ولا الظَّنُّ كاليَقينِ» فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة[2].

إن المعاني شبيهة - كما يقول ضياء الدين بن الأثير - بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة، فكما أنك إذا أوردت عليك مسألةً من المجهولات تأخذها، وتقلبها ظهراً لبطن، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها، وتعتبر أطرافها وأوساطها، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم، فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعاني، ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية[3].

وإذن فالتشبيه معادلة جبرية تتكون من مجهول أو أكثر ومن معلوم أو

---

(١) تلخيص المفتاح ص٢٢٨.
(٢) أسرار البلاغة ص١٠٨ وانظر: سر الفصاحة ص٢٩٠.
(٣) المثل السائر ج٢ ص٣٦.

أكثر من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة حسب تعقيد الصورة وكثرة المتغيرات. وحتى تكونَ الصورةُ أقربَ إلى الواقع فإنني أميل إلى استخدام التعبير الرياضي (≃) يساوي على وجه التقريب. المُشَبَّه س = المشبه به (معلوم). ولو طبقنا هذه المعادلة الجبرية التي سبق إليها ضياء الدين بن الأثير على منهج القرآن الكريم في التشبيه وعلى المنهج النبوي الشريف ستجد اتساقاً في التفسير، واقتصاداً في التعبير، ولطائف ومحاسن.

قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

السراب ظاهرة فيزيائية تتأتى من انكسار أشعة الشمس المرتدة عن الفلوات والكثبان الرملية عبر الطبقات الهوائية المختلفة الكثافة بسبب من تفاوت درجات سخونتها حسب قربها من الأرض أو بعدها عنها، إذ المعلوم أن أشعة الشمس تخترق طبقات الهواء ولا تسخنها، وهذا ما يفسر برودة الهواء في المناطق العالية أكثر من سواها. وعندما تصل الأشعة إلى الأرض تسخنها وتبدأ هذه السخونة تلامس الطبقات الهوائية الأدنى فالأدنى، وعند ذلك فإن انعكاس الأشعة عبر التفاوت الكثافي سيجمع الأشعة في بؤرة واحدة تنعكس على مكان معين فتبدو ظاهرة السراب.

وإذا كان السرابُ هو خِدْنَ المناطق الصحراوية، فإنَّ المسلم يزدادُ يقيناً إذا كان أقرب إلى إلْفِ هذا المعلوم والوقوف على أسراره.

وهنا يبدو جلياً تطابق كتاب الله تعالى المسطور مع كتابه المنظور وهو هذا الكون المفتوح بكل ما فيه من غِنىً في البيئة وأحوالها. وإذا كان

المسلم لا ينتمي إلى بيئة صحراوية فلا يعفيه من الأمر أن لا يسير في الأرض ويزداد فقهاً في دينه من خلال عبور القناطر التي تفتحُ على المجاهيل أبواباً من المعلومات التي ينبغي أن يحسن الوقوف عليها من وجوهها الكثيرة. وهذا ما يفسر ورود كلمة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف] وكلمة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] أكثر من اثنتي عشرة مرة في كتاب الله تعالى.

ثم هل السراب ظاهرة تتكرر في كل زمان؟ الجواب حتماً بالإيجاب، وإذاً سيكون لهذا المعلوم قوة التجربة العلمية من حيث التثبُّت منها وإعادتها. وهكذا يستطيع المسلم في كل زمان أن يزداد في المعلوم تحديقاً وتحديداً ليكون إلى النص قريباً حبيباً. وهكذا يلوح المعلوم لكل فرد ولكل بيئة على نحوٍ قد لا يكون ذاته لدى بيئاتٍ مغايرة وأناس مغايرين. أو جائز أن تقع عيونهم على أوجهِ شبهٍ في المعلوم تتفاوتُ من حيث التكامل أو درجة التوهج أو الوقوف على الغايات القريبة والبعيدة. وواضح أنه كلما ازدادت المعطيات العلمية والحضارية والبيئية أُتيحَ للنص أن يبدو أكثر إشراقاً وتألقاً في النفوس. أما الإشراق والتألق فهو سمة القرآن الكريم كله ولكن الإشراق والتألق هنا هو ما يتبَدَّى للإنسان وهو مدار الأمر ومَنَاطُ القصد كما سبق أن قدمنا.

وهكذا يبدو القرآن الكريم منجماً لتعدُّد الإيحاءات وغناها وسَعَة جوانبها وتكثر خيوطها، وكلما عاود الإنسان هذا المنجم أمدَّه بالجديد الجديد. وهو الوصفُ الذي قاله في القرآن الكريم رسولُ الله ﷺ: «لا تَفْنَى عجائِبُه، ولا يَخْلَقُ على كَثْرةِ الرَّدِّ»(١).

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٥٣ ويَخْلق بمعنى يَبْلى من طول العهد. والرد: الترديد أي أنه يبقى جديداً مهما كرره التالي وردده وهو بعض الحديث، رواه الترمذي =

وواضحٌ أن الأسرار الإلهية والمقاصد العلوية كانت من خلال البيان تنعقد منها الأمور في آياتٍ كونية وبيئية يشاهدها الناس ويتعاملون معها، ويحددون فيها البصر ويرهفون إليها السمع. وأن الوصول إلى هذه المقاصد هو المرور عبر البيئة الأرضية ومحتوياتها، وهي ذات البيئة في كل زمان ومكان. ولعل هذا يومىء إلى أنَّ التصوف الإسلامي ينبغي أن يكون مروراً من ذات البيئة الإنسانية ومعاناتها والتعامل معها، وليس بهجران الحياة وملابساتها.

وهكذا قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم].

س	الكاف
(أعمال الكافرين)	= رماداً اشتدت به الريح في يوم
والتوهم بالخير	عاصف
المشبه	المشبه به (المعلوم)

هل الرمادُ يشتد به الريح في يوم عاصف قَصْرٌ على زمانٍ دون آخر؟ إنَّ المشبه به لَهُوَ من التكرارِ بحيثُ يبقى ما بقيت الحياةُ الإنسانية على الأرض وبذلك فإن هذا المعلوم يملك قوة ما للتجربة العلمية من إعادة وإثبات، ناهيك عن قوة الإحساس بها.

إن ارتفاع عمود من الزئبق على سطح البحر هو ٧٦سم سواء أكان ذلك على البحر الأبيض المتوسط أم في نيويورك، في القرن التاسع عشر

= بإسناد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفيه: «ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء»: المعجزة الكبرى ص١٥.

أم في القرن الحادي والعشرين. ومَنْ كان في شك من ذلك فيستطيع إعادة التجربة والتيقن من الأمر.

وإذا كانت الآية السابقة قد انعقدت منها المعادلة في جو صحراوي يتشكل في أي زمان وفي أيِّ بيئة، فإن الآية هذه قد أعادت تثبيت ذات الدلالة من خلال مشهد جديد وتصور جديد. وإذا كان منظر السراب مما يَعزُّ وجوده في غير الصحاري والمناطق الحارة، فإن منظر الرماد والريح الشديد لهو ألصقُ بالمناطق الباردة والمناطق الثلجية والقطبية.

وهكذا تأتي الآيات تتضافر لتقدم للعقل الإنساني من خلال التنوع والتفاوت غِنىً في الإيحاءات والمقاصد والتعبير. وهذا يغري الشادي وراء الأسرار الإعجازية أن يسعى إلى تفسير القرآن الكريم بالقرآن فهو نظامٌ متكامل يرتبط ببعضه ارتباطاً عضوياً وثيقاً، وإنْ بدا أحياناً من لبس أو غموض من بين مقصد وآخر - كما اختلف الناسُ بين القَدرية والجبرية مثلاً - فإن ذلك ناشىءٌ عن طبيعتنا القاصرة التي تعجز حتماً عن عبور الأسرار جميعاً والإحاطة بها من كلياتها. ولا جرم، فإنَّ سَمْعَنا محدودٌ ضمنَ بُعْدٍ لا نجاوزُه، وبصرنا محدود ضمن رؤية معينة(١)، وكذلك مبلغنا من العلم والتفكير.

وليتفكَّرْ أحدنا أنْ لو أُتيحَ للناس أن يكونوا بعيون أكثر تكبيراً بمئات المرات أو دون ذلك بكثير، أو أن يكونوا بقدرات على التنصت أكثر هولاً، هل تظل نظرتنا للأمور ذات النظرة ويبقى التصور ذات التصور؟ وهو الأمر الذي عبر عنه رب العالمين في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ

---

(١) انظر في أمثلة ذلك: البدء والتاريخ ج١ ص٢٢.

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ۝٧﴾ [آل عمران].

جاء في تفسير محيي الدين بن عربي للآية الكريمة أن الحقَّ الإلهي كُلٌّ متكامل وإن هذا ينعكس على النفوس المتفاوتة في الرغبة والطاعة والاستعداد ودرجة الصفاء انعكاساً متفاوتاً، فمنهم مَنْ يرى جزءًا ومنهم من يرى أكبر ومنهم دون ذلك، وهكذا يتكثر التفاوتُ بتفاوت الصفاء والاستعداد كانعكاس أشعة الشمس الواحدة على المرايا المتعددة. فبقدر ما تكون هذه من اللمعان والصقل بقدر ما يرى شعاعها صفاء ونفاذاً. من هنا فإن درجات الاستعداد القاصرة تظن أن في الرؤية تناقضاً أو عدمَ اتساق، بينا التناقضُ وعدم الاتساق هما نتاج عدم الاستيعاب ونفاد الفهم وقصور الأداة. وهكذا تشتبه على هؤلاء الحقائق ويذهبون فيها معاجزين، بينا المؤمنون تَتوحَّدُ فيهم الأبعادُ، وتندغم لديهم الأمور، وتبدو وحدة الرؤية الكلية. فإن استطاعوا أن يَحلُّوا مغاليقها فبها ونعمت، وإنْ لم يستطيعوا وهو الأصح - لعجزِ قدراتِ الإنسان وأدواته، فإنهم يسلمون أن ثمة لا تناقضَ وإنما هو تناغمٌ وانسجام، ويرجئون ما استغلق عليهم من فهم إلى وقت يرجونه، أفي الدنيا كان ذلك أم وقت لقاء وجهه الكريم.

إن الموحدين كما يقول أبو زيد البَلْخِي يعرفون ربهم ولا يعلمونه[1] بل إن عدم الاختلاف في القرآن الكريم لهو في الأسرار المعجزة التي تظل تضع القدرات البشرية في دوائر العجز والتقصير.

---

(١) البدء والتاريخ ج١ ص٢٢. ويقول أبو زيد البلخي أن العلم الإحاطة بذات الشيء عينه وحده. والمعرفة إدراك ذاته وثباته وإن لم يدرك وحده وحقيقته. إن الموحدين يعرفون ربهم ولا يعلمونه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]. وفي وقت تفيض فيه الدنيا كل عام بمؤلفات ضافية من وحي القرآن الكريم ومن علومه وتحت رايته وفي تَقَصِّي أسرارِهِ وارتياد آفاقه، وفي وقت نجد أن المكتبة القرآنية هي الأخصبُ والأغنى في كل ما أوحاه أي كتاب من دراسات وبحوث، فإن أعمال عمالقة كبار في التاريخ الإنساني كسبت أنصاراً كثراً، ثم لما أن تقدم بها الزمان شاخت وهرمت إلا كتاب الله تعالى فإنه يزدادُ مع كل نضج علمي أو بُعْدٍ زماني شباباً وتألقاً ورواء. ويكفي أن نشير إلى فضل أرسطو طاليس على الدراسات الفلسفية والأدبية والبلاغية والجمالية وأثره في الشرق والغرب. ومع ذلك فقد كان أرسطو طاليس يبني مملكته العلية على فَرَضيات وبديهيات هي الآن خاوية على عروشها أمام طلبة المدارس الابتدائية. كان أرسطو يَرُدُّ الوجودَ إلى عناصر أربعة أو أسطقسات أربعة هي الماء والهواء والنار والتراب. وجاء العالم الإنجليزي كافندش ليثبت بالتحليل الكهربائي أن الماء مركب من الهيدروجين والأوكسجين بنسبة ٢:١. وتبين الهواء نيتروجين وأوكسجين وثاني أكسيد الكربون وأعداداً لا حصر لها من العناصر الغازية والمركبات الغازية. وبان أن النار طاقةٌ، وأن التراب خليطٌ من عناصر ومركبات كثيرة. فهل زاد علم أرسطو مع تقادم الزمن تماسكاً أم قد بان فيه اختلاف كثير؟

وذهب أرسطو إلى أن الكواكب هي حية ولها النفوس ناطقة، وقد عطف على ذلك العالم الطبيب الفيسلوف الرئيس ابن سينا فقال: إنَّ الكواكب هي العقول الأولى في نظامه العشري في نظرية الفيوض. وها قد جاء العلم الحديث ليثبت عملياً مذ وطئت قدما أرمسترنغ أرض القمر أن الكواكب ليست إلا أرضاً لا تملك لنفسها إرادة وأنها دونَ الأرض حياةً واعتباراً. وقد اعتذر البارون كارل ديفو عن ابن سينا بأنَّ مُعطيات

عصرِه العلمية هي التي قد خذلته.

وسواء أسقط أرسطو وابن سينا من تلقاء أنفسهم أم من خلال معطيات عصرهم فإن أمراً واحداً لا نعدوه وهو تقرير أن العبقرية الإنسانية هي في دائرة الاختلاف والعجز مهما أوتيت من مَدَد فكري وحضاري. ولا نعني بالاختلاف أن يكون ثمة تناقض في البناء الواحد ولكن الاختلاف يعني أن يكون مخالفة للحق وواقع الأمر. بقي أن نشير إلى أن أبا زيد البلخي (ت٣٢٠هـ) في بداية القرن الرابع الهجري وقبل ألف عام من ارتياد الفضاء والنزول على الكواكب قد أسقط دعوى أرسطو في نظريته وسخر منها[١]، أو ليس قد عرف ذلك من خلاف الصفاء الذهني دون أن يعلمه - على حد تعبيراته -.

وكأعمال أرسطو وابن سينا كانت هندسة إقليدس قد بلغت حداً في التناسب الفني والتسلسل المنطقي تُطاولُ قروناً كثيرة. وبدا هذا الصرح المُمَرَّدُ يميلُ ويهوي أمام تشكيك العلماء في البديهيات التي قد اعتمدها إقليدس وبخاصة بعد اكتشاف الهندسة الفراغية. وما بُنِيَ على فاسد فهو فاسد، عقلياً كان أم غير ذلك.

وهذا المتنبي فحل الشعراء العرب والذي تناول ديوانه بالشرح والتفسير والتعليق أكثر من ثلاثمائة مؤلف، يسقط في المواضع المختلفة ويعتريه الكَلاَل والوَهْن، ويسقط من ديوانه الكثير الكثير، وفيه من الهَنَات والغمزات والسقطات كثير.

حتى ماركس أبو المذهب المادي في تفسير التاريخ والذي يعتبره العالم المناوىء المتراسَ الأخير لصد العالم الإسلامي بل وغزوه - وفي

---

(١) البدء والتاريخ ج٢ ص٢٠.

شبابنا وأقلياتنا سَمَّاعون لهم - مات وفي نفسه شيء من حسد محمد ﷺ. بل أكثر من ذلك فإن وليم والمان William Wolman المحلل الاقتصادي في مجلة Business Week يقول: إن منافس ماركس الوحيد هو محمد[1] ﷺ. ويكفي شاهداً على أن ماركس سقط أخيراً من خلال الردة في أفكاره، ومن خلال خروج تفسيراته عن مسارها، ومن خلال الصراع بين الأحزاب الشيوعية في العالم، ومن خلال الاختلاف بين تقديراته وتنبؤاته وبين الواقع. وهكذا يسقط من يتطاول ليرى محمداً ﷺ وهو الرجل الأمي في جزيرة قاحلة عام ٦١٠م منافسه الفكري الوحيد، ويظل الكتاب الذي أُنزلَ على محمد ﷺ يكسب المعارك الفكرية ويؤلف قلوباً جديدة في عواصم الفكر وبلاد المذاهب الإلحادية.

ولو أن هذا المتنبىء الجديد صدق نفسه وفاء إلى رشده لبشَّرَ بأن كثير المنافسة ليست قائمة إلا في وهمه، وأنَّ الاتساق في هذا الفكر وسحر الألباب ليس هو قول البشر وإنما هو القول المعجز.

ومن خلال قنطَرَتي التشبيه بين أعمال الكفار وبين السراب الذي لا يحوي قطرةً من بَلِّ الصدى وبين أعمال الكفار وبين ذرات الرَّماد التي تشتد بها الريحُ جرياً في اليوم العاصف، يتضح للمؤمن أن أملاً في أن يجد هؤلاء حسناً على بعض أعمالهم الدنيوية أو أن يجدوا مرتفقاً غير كائن. إن هاتين الصورتين اللتين يحلو للمرء أن يشاهدهما ولو من خلال المطياف ستبقيان تُعطيان المسلمَ المددَ الثقافيَّ والفكري لقوة اليقين وثبات العقيدة ووضوح المواقف بل وإلغاء الأوهام الكاذبة وشِباكِ المغالطة والتدليس والطابورية الخامسة عبر صدقاتٍ مشبوهة وإحسانٍ

(١) Business Week, April 4, P.15.

مكذوب ومعونة مبطنة.

إن المسلم الملتزم بعقيدته ليعبر منطق الله تعالى عبر سبع سموات - وهو من خلال بيئته في الحر أو القر - يترجم عن إرادة رب العالمين وموازينه ومقاصده. إن المسلم الملتزم بعقيدته المقبل على ربه بالطاعات عبادة وتفكراً وتدبراً، يقتربُ ليكون سمع الله وبصره. وهكذا تظل بيئة الإنسان في غناها وتنوعها واختلافها هي الآيات الربانية التي تذكر المسلم إذا نسي، وتُحَبِّبُ إليه الإيمانَ وَتُزَيِّنُهُ في القلوب، وتُغري بالخالفين والناكبين والقاسطين ترصدهم وتكشفُ مواقعهم وتَحُولُ دون الانخداع بمسلسلات أباطيلهم وصيغ مشروعاتهم.

ثم إن الطبيعة تبدو من خلال التصور الإسلامي حبيبةَ المسلم ومُتَحَرَّكَ الكثيرِ من أسرار عقيدته، وخفايا حكمته. بل إن الطبيعة ستبقى في عيني المسلم جدة تلمع، وكأنها حديثة العهد بربها، فهي حاملة الأسرار وهي الموحية بالأسرار، وهي الأمينة على الأسرار[1]. وأين ذلك ممن حُرِمُوا هذه النعمة فَعَمُوا وصَمُّوا، وعموا وصموا، وأقبلوا على المسكرات والمخدرات، وعكفوا على الشهوات، وألغوا سمعهم وأبصارهم ودمروا أنفسهم ومروا عن الدنيا وكأنهم لم يَرَوْها.

إن المسلم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

---

(١) من كلام الإمام علي رضي الله عنه: الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، مهبطُ وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه: ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة. الجمان ص٨٠.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة] لَيُحِسُّ وكأنه يعيشُ في مناخ الحركة والنشاط الدائب (الديناميكية) الذي لا يكاد يغفل عن صفحاتِ الكونِ الدائمةِ التحرك أنه يحس وكأنه ينبغي أن يعيش كل لحظة من حياته في التفكر والعمل والبناء والإقبال على الله تعالى بنفسٍ واثقة وخُطى متزنة، وصدر منشرح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

س= الكاف
مثل الكافرين في عدم اهتدائهم = الكلب يلهث في حالي زَجْرِه وتركه
إلى الله بلغوا الإسلام أم لم يبلغوه.
وأحوال الكافرين وكيف تعتمل
نفوسهم أمرٌ يَطَّلعُ عليه مَنْ يعلمُ
السرَّ وأخفى ويطلع على الأفئدة
وما تخفي الصدور

واضحٌ من قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا ﴿١٧٥﴾﴾ حاجة القرآن الكريم إلى السنة النبوية المطهرة لإعطاء المزيد من البيان وواضح من إيراد القصة[1] والتعقيب عليها بالقول: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) قيل: إن صاحب القصة هو بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل سئل أن يدعو على موسى عليه السلام وأُهديَ له شيء، فدعا فانقلب عليه، واندلع =

بِـَٔايَـٰتِنَآۚ﴿١٧٦﴾ [الأعراف] - أنّ العِبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قالت الفقهاء.

نحن أمام توظيفٍ جديد لعناصر البيئة الإنسانية وفتح باب من المعلوم على المجهول. إن نفسية الكافر وما يدورُ فيها من تهويمات وما يعتملُ فيها من أفكار أمرٌ يجهله المسلم لأنه لا يعلم ما في الصدور، ولكن المسلم يعلم أن الكلب يلهثُ إنْ حُمِلَ عليه ويلهثُ إن ترك، واللهاثُ دليلُ ضعفٍ وعجز.

وإذاً فإنَّ قَنْطَرَةً تقومُ بين أمر كان مجهولاً وهو أمر معنوي وبين أمر محسوس معلوم، وهكذا يغدو التشبيه في القرآن الكريم تقريباً إلى المسلم وشرحاً وإيضاحاً وقوة برهان، ثم إن هذا المعلوم أمر محسوس موجود في كل زمان ومكان، كان على زمن نزول القرآن الكريم وهو قائمٌ اليوم، ومن ثم فإن هذا المعلوم للمتثبت لهو في قوةِ إعادةِ التجربة العلمية، وبذلك تبقى به قائمة الحجة.

وفي التشبيه الدليلُ للرسول ﷺ وللمسلمين أن قطاعاً من الناس سيظل في دائرة الكفر، إذ مهما انتشر الإسلام ومهما امتد وضرب بجِرَانِه، فإن أناساً سيبقى أمرُ اهتدائهم إلى الدين - أباللينِ كانت الدعوةُ أم بالعنف - غير قائم وذلك لأنهم ألغوا أدوات الانتفاع والاهتداء واتبعوا الهوى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا

= لسانُه على صدره فأدركه الشيطانُ فصار قرينه. انظر تفسير الطبري والنسفي وابن كثير والجلالين. وقد وردت أسماء أخرى للقصة في مواطن متعددة من كتب التفسير. وفي رواية أخرى نزلت في أمية بن أبي الصلت. انظر الفخر الرازي وابن كثير والبغوي وأسباب النزول للواحدي. وفي رواية: أبو عامر الراهب أو الوليد بن المغيرة. انظر: في ظلال القرآن.

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾
[الأعراف].

وفي التشبيه التأييد المعنوي للمسلم الذي له المثل الحسن في مخلوقاته وأين منه حال الكافر والتقاؤه ولهاث الكلب على صعيد واحد. إن هذا التقزز الذي لا يخفى على كل إنسان سيظلُ يعيدُ إلى نفسية المسلم شعورَ الزهو والزكاة النفسية وتعاليه على الكفر مهما تَقلَّبَ في البلاد وتهندم من لباس وارتفق من آلاتٍ وأدوات وأوانٍ. إنَّ لهاث الكلب سيظل ينادي على هؤلاء بالذلة والخِسَّة وسيظل للإنسان المسلم التعزيز بالمُضِيِّ قُدُماً في حسم المواقف لصالح الرؤية الإسلامية التي تنعقد منها خيوط السماء بخيوطِ من الأرض عبر قناطر التشبيه ومعادلاته.

وإذا كان الكلب قد جاء في هذا السياق في المثل غير الحسن، فإن هذا مَعْنِيٌّ به الإنسانُ وحده لأن الأمور بالنسبة إليه، والمعاني من خلاله. ومن يدرينا لعل اللهاث في الكلب لدى الكلاب من صفات الكلوبة كما الشاربان من صفات الرجولة. وها هو الكلب يأتي في سياق الصيد في موقف الإعزاز ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴿٤﴾﴾ [المائدة].

إنها اللقطات الفنية التي تعزز المعاني والمقاصد وتوظفها في خدمة النص. وهكذا تقوم القناطر باستمرار ما بين المعاني والنصوص من جهة وبين عناصر البيئة المحلية من جهة أخرى، بل تكاد ترتبط هذه بأمور ذاتية لكل فرد. فالذي يربي كلباً يعقدُ في أُمِّ أفكاره مشابهةً بين الكافر وبين كلبه، والذي يرى كلب الجيران العملاق تقوم قنطرة المشابهة مع هذا الكلب، والذي يرى كلب الجيران القميء تنعقد المشابهة من خلاله، والذي يرى الكلب في بلد دون غيره تنتظم في ذهنه عقود المشابهة بين

الكافر وبين ما يعرفه عن الكلب، أو لنقل وبين معطياته الثقافية ومدركاته.

ومعنى هذا أن القرآن الكريم سيبقى يثير في كل نفس عوامل ذكريات ومعطيات ذاتية، وسيكون الإحساسُ بالمعاني متفاوتَ الطعوم والنكهة والتأثير. وهذا ما يجعل آيات الله تعالى ترتبط في النفس الإنسانية بروابط حية ونامية. وهذا في الأسرار التي تظل تجعل القرآن الكريم حياً في النفوس في كل زمان وجيل، وتظل أمثلته قادرة على تحريك المشاعر والوجدانات لجميع الناس كلٌّ في عصره وموقفه ومتفاوَتِ حظه من الثقافة والمعرفة، ناهيك عن الجدة التي تذكي العيون فيظل كل ما في الطبيعة من ظواهر يستأهل أن يُدرس وأن يكون موضع تأمل - في الخير الظاهر بان أم غَايَرَهُ. وما نظن أن أحداً يقرن بين المثلين: الكافر في تأبِّيه ونكوبه وكلب معين في لهاثه - يمكن لذاكرته أن تفلت هذا المعنى أو النص الذي ارتبط به لسنوات كثيرة - وهو في العوامل التي تُيسِّر القرآن للذكر والذاكرة. بل إن كل كلب أو صورة كلب تقع عليه الأنظار سيكون في المفاتيح التي تُذَكِّرُ بالمعنى والنص واستلهام المواقف منهما - المواقف التي تنعكس على طرائق التفكير وأنماط السلوك. إنه تثبيتُ المقاصد والمعاني من خلال التعزيز بالحسيات، وهو أمرٌ يزيده الغِنى الثقافي والبيئي والحضاري وضوحاً على وضوح.

التشبيه في القرآن الكريم:

وصدوراً عن ذات المعادلة وهو فتحُ بابٍ من المعلوم على المجهول، وفتح بابٍ من المدرك على الغيبي فإننا سنعيش لحظات سعيدة مع مواقف تشبيهية في القرآن الكريم، مستفيدين مما سبق إلى التنويه به والوقوف عنده أعلامٌ كبار، وأسلافٌ أفاضل، كأبي الحسن الرُّمَّاني المتوفى سنة

٣٨٦هـ، وكأبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥هـ، والباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ في «إعجاز القرآن»، ثم الخفاجي في «سر الفصاحة» وابن ناقيا البغدادي ت٤٨٥هـ في «تشبيهات القرآن» وضياء الدين بن الأثير في «المثل السائر» وعُمْدتنا في الأصول والكليات الإمام عبد القاهر الجرجاني في «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

وسنضربُ صفحاً عن تقسيمات الرماني والعسكري التي يتداخلُ بعضها في بعض[1] مكتفين بالوقوف عند الكليات التي قد عَلَّمَ عليها الإمام عبد القاهر أو عند إيحاءاتها. وفي هذا ما فيه من حد جموح النفس إلى التعلق بمصطلحات التقسيم والتبويب والآلية التي تُجَفِّفُ الرواء وتذهب بالمائية. وفي هذا: التعامل مع النصوص القرآنية، وكأنَّ كل نص في نسقه هو نَسيجٌ وَحْدِهِ، وهو النكهة الخاصة، والقيامة الذاتية ضمن المناخ القرآني العظيم. وفي هذا ما فيه من نشوة التعامل الجمالي وتتبع أنساق الكلم في مواقعه الكثيرة وغنى الاستيحاءات من النص الحي الناطق المتفرد في الخلق والمجاورة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد].

س	الكاف
عبادة الأصنام	= بسط الكفين إلى الماء للشرب
وتوهم الاستجابة	
معنوي	= حسي

---

(١) انظر في ذلك: إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما قد جرت به عادة. المعجزة الكبرى ص٢٦٧.

إن الذين يعبدون من دون الله تعالى ويتعلقون بأوهام الاستجابة وتلبية الرغبات وهو أمر يتصل بالمعتقدات الذاتية لكل إنسان، ودرجات الوضوح في معتقده، وهو الأمر النفسي المعنوي الذي لا يقف على دخيلته إلا ربُّ العالمين الذي يعلمُ خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور، لَكَالباسطِ كَفَّيه إلى الماء ليبلغَ الماءُ فاه وما هو ببالغه، وهو أمرٌ محسوس موجود في كل بيئة وفي كل زمانْ.

وهكذا يكتسبُ المجهول لدى المسلم قوةَ الوضوح من خلال المعلوم المحسوس الذي له قوة التجربة العلمية في التحقق والتثبت والمعاينة. وهنا أيضاً يرتبط التشبيه بغنى الإيحاءات المتصلة بالبيئة الجغرافية لكل فرد. فأهل الأنهار يتصورون المنظر من خلالها وعلى حوافها، وأهل مياه الجمع فكذلك، وغيرهم ممن تختلف عندهم وسائل التعامل مع الماء.

يقول سيد قطب: وهي صورة تُلحُّ على الحِسِّ والوجدان، وتجتذبُ إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة، وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ: شخص حي شاخص باسطٌ كفيه إلى الماء، والماءُ منه قريبٌ، يريد أن يبلغ فاه، ولكنه لا يستطيع ولو مده مدة فربما استطاع[1]!

ولعل الإشارة بوجود الماء لدليل على وجود غريزة التدين والإقرار بالعبودية لدى الناس ولكن هذه الغريزة لا تجد الطريق إلى إرواء الغلة لنكوب الأسلوب الصحيح[2]. ولعل الإشارة إلى الماء دون غيره يشير إلى إرواء الغليل الذي يستشعره المرء حيال الماء. وهكذا لا يستطيع أن

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص٣٥.

(٢) لقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الزمر].

يشرب من الماء مَنْ كان على مقربة منه، ومن لم يحسن أن يغرف بيديه، لأن الماء لا يثبت على الكفين المبسوطتين. فكذا من راموا التعبد ولكنهم ضلوا الطريق الصحيح إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

س	الكاف	
مثل الحياة الدنيا	= ماء السماء + اختلاطه بالنبات + . . .	
وهو أمر معنوي	وهي أمور حسية جرت العادة بمثلها	

وهنا انعقدت معادلة التشبيه بين أمر معنوي هو مثل الحياة، وبين لوحات ومناظر طبيعية نُسِّقَ بعضها على بعض. وهذه اللوحات كلها مما تألفه البيئةُ الإنسانية وما جرت العادة بأمثاله. وسيكون لنا وقفة عند الآية القرآنية الكريمة عند الحديث عن التمثيل إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر].

مجهول	معلوم
	كأنهم
س	= أعجاز نخل منقعر
طريقة إهلاك قوم عاد، وهو أمر مُغَيَّبٌ عنا	

أهلك الله تعالى قوم عاد بالريح التي تقلع الناس وتقتلهم، ولما كان

هذا المشهد الرهيب هو طي الزمان السحيق ولا يحيطُ خبراً به إلا ربّ العالمين الذي أودع كلَّ سِرٍّ كتابه، فإن قنطرة المشابهة تنقل إلينا مدينة الأشباح وآثار القوم عبرَ صورةٍ حسية مألوفة ومعلومة تجري العادة بمثلها وتتوفر في كل زمان ومكان ينبت فيه النخل. وكلما دقق المرء في موحيات المشبه به كان أقربَ إلى استجلاء الحقيقة التاريخية والأحداث الماضية. وهكذا تُنقلُ أسرارُ الماضي، وإشراقات المستقبل، وموازين الحق عبر صور حسية لها قوة التجربة، وإعادة التثبت والتحقق. وهكذا يصبح التفرُّسُ في الوجود استلهاماً للماضي واستشرافاً للمستقبل وعبوراً إلى غير المدرك، وهكذا يصبح التفرس في الوجود تفكراً وعبادة يقترب بها المرء من ربه ويزداد معرفةً به.

ولا مُشَاحَّةَ في أن لكل لفظة في المشبه به إيحاءاتٍ غنيَّةً دالَّةً، وكلما أتيح للعقل نُضْجٌ علمي ظفر بأسباب وضوح أعمق وأشمل. وليُتِح المرءُ لنفسه تصور بستان من النخل فيه أسراب كثيرة كثيفة، ثم ليتصور بين هذه الأشجار أعجاز نخل كثيرة مقلوعة. وقد جرت العادة حين القلع أن يحفر حفر عميقة لأن تَأَوُّدَ النخلةِ في الأرض كبير. ولو أتيح للنخلة أن تقلع من جذورها لتركت موضعها حفراً. أضف إلى هذا منظر هذه الأعجاز قشرة ميتة خالية من الحياة، والصمت الرهيب الذي يتداخل فيه منظر النخل الميت مع السيقان الحية وما يشوبه من ظلال شجر النخيل في نهار مشمس أو في ليلة قمراء. إن هذا المنظر هو بحق مدينة أشباح وهو صورة الصمت مع تناثر الأشلاء والحطام.

ولو أتيح لإنسان أن ينظر بعيني طائر إلى مصارع قوم عاد وحالهم بعد أن غادرتهم الريح بعد الهلاك، أو لو أن صورة كلية التقطت لهم من الجو لكانت الصورتان متقاربتين في الشبه والظلال.

أما لماذا كان التشبيه بأعجاز النخل دون أعجاز الزيتون أو التين مثلاً؟ إن ذلك لما يتصل بحقيقة الأمر وقرب الشبه. هل جائز أن القوم كانوا طوال الأجسام بما يجعل وصفهم بالنخل أقرب؟ إن هذا على الأقل ما توحي به الدلالة الهامشية للألفاظ. وإذا قارنا هذا الوصف لقوم عاد بوصفٍ آخر في موضع آخر من القرآن الكريم نجد أن القرآن يفسر بعضه بعضاً. ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى في وصف عاد: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴿٦٩﴾﴾.

وإن كتب التفسير وأخبار الماضين تحدث بذلك وإذن ففي اختيار النخل إيحاءات تغني جوانب الصورة. ثم إن قوله تعالى: «تنزعُ الناسَ» لهو أمرٌ مُوحٍ أيضاً. ولم تجر العادة أن تصل الريح حداً من السخط تدخل البيوت والأكنان وترفع الناس منها بقوة، ثم تلقيهم على الأرض جثثاً هامدة. وها نحن بدأنا نسمع عن قنابل النيوترون التي لها قدرةُ قتلِ السكان دون المساس بالممتلكات. ثم نحن قد قرأنا عن القنابل الارتجاجية التي تقتل الناس بالذبذبات العالية التردد. ثم هل نستطيع أن نستوحي أن قوله: «تنزع الناس» دليل على أن قوم عاد كانوا يتمترسون بخنادقَ وسراديبَ أرضيةٍ وصخرية؟ إن اللفظة القرآنية تحمل إيحاءات كثيرة على هذا السبيل. وقد أكد هذا الإيحاء القرآن الكريم في سياق آخر حين ذكر رب العالمين قوله: ﴿۞وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف].

ويقيناً لو أن ظفر الناس بصورة صادقة عن أخبار الماضين إذاً لكان لتفسيرنا البياني نشوة أكثر تطريباً. ويقيني أن لو يتاح للعالم الإسلامي أن يرصد لهذه القضايا المنح والأرصدة لتفتقت أذهانُ مسلمين غيارى

ومُنَقِّبِيْنَ عن وقائع تستهدي بالتفسير البياني، وتحقق المزيد المزيد على طريق الاستجلاء والاستيضاح. وإن المسلم مأمور أن يبحث وأن يتدبر وأن يسافر وأن يأخذ العبرة من الأقوام السابقين ومستعمراتهم ومصانعهم.

وأصول النخل المنقعر هل تعني أن هذه الريح كانت تنشف أمعاء الجسم وأوعيته الداخلية بحيث تبقى الجثث وكأنها شَنٌّ. وتكون بذلك الجلود قد يبست وبانت الجثث أسطوانات خفيفة فارغة. إن هذا على الأقل ما يُوحِيه انقعار أعجاز النخل. وقد رفدت كتب التفسير هذا الإيحاء عندما ذكرت أن الريح كانت تدخل من مناخر قوم عاد وتخرج من أدبارهم.

وقوله تعالى: «أعجاز نخل» دون التحلية بأل، إشارة إلى أن بعض أشجار النخل هي الملقاة وليس جميع الشجر في البستان الواحد. وهو أمر معلوم تجري به العادة ويألفه الناس الذين لهم بزراعة النخل ارتباط. أو يعني وجود أعجاز ميتة بين شجر قائم وأخذ صورة كلية لذلك عن بعد أن الناس من قوم عاد قد أهلكوا في وقت ظلت فيه دورُهم قائمةً ومساكنُهم سليمةً؟ إن هذا حتماً ما توحيه دلالات التشبيه، وإن هذا الإيحاء نَستيقنُ من صحته بما أَكَّده رب العالمين في سياق آخر عن عذاب قوم عاد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت].

وهكذا يزداد المسلم معرفة بربه وآياته وأسرار الوجود كلما أرهف

السمعَ وحَدَّدَ البصرَ وأخلص الانقياد لله تعالى. وهكذا تتراءى الدنيا للمسلم دار العبور التي تُغني المعرفةَ وتُقوِّي منه التدبُّرَ وأخذ العبرة. قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء] والعمى ليس عمى البصر ولكنه عمى البيئة والمدركات.

وهكذا تنطبع أسرار الوجود والمقاصد العلوية في نفس المؤمن حتى لتصبح انطباعاته الأولية فراسة وألمعية. أوليس الرسول ﷺ يقول: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»؟

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرحمن].

وردة: محمرة، الدهان: الأديم الأحمر.

الكاف

س = الدهان (حسي معلوم)

حال السماء يوم القيامة وهو أمر
مغيب ومجهول

في الآية الكريمة تُنْقَلُ إلى المسلم أسرار أحوالُ السماء يوم القيامة وهي صورة مستقبلية ما كان لأحدٍ أن يستبق معرفتها ولا يملك تجلية الأمر حولها. وهي تنقل إلى المسلم عبر مُشَبَّهٍ به محسوس معلوم مُنْتزَعٍ من البيئة الإنسانية وهذا المحسوس المعلوم في كل زمان ومكان فهو له قوةُ التجربة العلمية من حيث الاستحكام.

إن وجه الشَّبَه بين الأمرين هو الاحمرارُ والصَّقل، فكما أن الدِّهان يكون صقيلاً أملسَ لا نتوءَ فيه ولا خشونة فكذلك تكون السماء يوم القيامة. وهي صورة تسبق إلى ذهن المسلم فتكون لديه فراسة في

الوقوف على أسرار الوجود والتفرس في الأحوال المختلفة عبر إيحاءات التشبيه المنتزعة من البيئة المحلية. وهكذا يستطيع أفقرُ المسلمين بيئياً أن يكون على فراسةٍ وحكم على الأمور صواباً من علماء على غير الإسلام ولا اهتدوا بهديه أو تدبَّرُوا آياته.

وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد].

الكفّار: الزُّرَّاع، يهيجُ: ييبس، حطاماً: فتاتاً.

الكاف

س = مطر (هذه حالته)

مثل الحياة الدنيا وتَصَرُّم نعيمها
وهو أمر لا يعلم ماهيته إلا الله
تعالى الذي يُحيطُ بالزمانِ والمكان

جاز المسلم إلى ماهية الحياة الدنيا ومآلها وهو أمر معنوي عبر قنطرة التشبيه التي وصلت المعنويَّ بصورة معلومة محسوسة موجودة في البيئة الإنسانية كل زمان ومكان. وهكذا تنعقد المعاني القرآنية والحِكَم الربانية عبر البيئة الإنسانية وغنى عناصرها وأحوالها بما يتيحُ للمسلم أن يعيش الحياة الدنيا بكل معانيها ليعبر منها إلى الآخرة بأوضح ما يكون التصور وأجلاه.

أما وجه الشبه فهو تَصَرُّمُ النعيم الدنيوي والعرض الزائل. فأما المؤمنون فلا يتعلقون بحظوظ الدنيا ثقةً منهم بزوالها، وهؤلاء لهم مغفرةٌ

من الله ورضوان، وأما الكافرون فيتعلقون بهذه الحظوظ التي وشكان ما تصبح حطاماً كأن لم تكن، وهؤلاء لهم في الآخرة عذاب شديد.

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

الجنة	الكاف
س	= (السماء + الأرض)

وهو أمر غيبي يتولى تعريفه رَبُّ العالمين

ويزيد الأمر وضوحاً قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴿١٣٣﴾﴾.

يُرَغِّبُ الله تعالى بالفضل وسعة الخيرات في الجنة هذه السعة التي تتناسب طردياً وسعة المكان فقرب الجنة من التعريف عبر مدركات البيئة الإنسانية. وإذا كان عَرْضُ الجنة فقط هو كعرض السماء وهو عرض هائل لا تحده الظنون بل هو عَرْضٌ مُتناهٍ بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات] بدليل أن الشمس على بعدها ليست عنا بأبعد من ثمان دقائق ضوئية فكيف إذا كان في النجوم ما يبعد عنا مئتي سنة ضوئية[1]، وأن سرعة الضوء هي ١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية أو ٣٠٠,٠٠٠كم/ث، يضاف إليه عرض الأرض وهو أمر كبير أيضاً ومعلوم، فمعنى ذلك أن طولها هو حتماً في الآماد التي لا يكاد العقل الإنساني يظفر بنهاياتها، إذ من البدهي أن الطول هو أكبر من العرض أو يساويه في أقصر أحواله،

وبالتالي فإن مساحة الجنة ستكون في السعة البالغة. ولو تصورنا مثلاً طريقاً بين القدس والقاهرة وليكن طولها ألف ميل فإن عرضها قد يجاوز الخمسة أمتار. وهكذا فإن تكثر الطول بالنسبة للعرض لهو أمر يتفلّت من كل تقدير. وهكذا وُظِّفت البيئةُ الإنسانية والمدركات في بناء تصور عن غير المدركات وعن الغيبيات.

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة].

مثل الذين حملوا التوراة

الكاف

س = حماراً يحمل أسفارا

ثم لم يحملوها، وهو أمر لا يعلم

حقيقتَهُ إلا ربُّ العالمين الذي يحيطُ (معلوم محسوس)

بالزمان والمكان

يُقَرِّبُ الله تعالى إلى المسلم أحوال بني إسرائيل ونكوبهم عن أمانات التعليم السماوي والوصايا، فكان تناقلهم لبعض صحف التوراة وألواحها من غير أن ينتفع بها كالحمار يحمل كتباً ورقائق الكتابة. والحمار من البيئة كما هي الكتب. وإنه لمن البدهي أن يعلم الناظر أن الحمار يحمل الكتب دون أن يفيد منها. وهكذا اجتمع المعلوم المحسوس مع البداهة في تقرير أمر مضى به الزمان عبر قنطرة التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة].

حال عاد عشية موتهم:

س	الكاف	= أصول النخل الساقطة الفارغة

يُقَرِّبُ الله تعالى إلى المسلم حالَ قومِ عادٍ وقد أهلكتهم الريحُ الصرصر بأصول النخل الساقطة الفارغة. وأصول النخل الساقطة الفارغة أمر متوافر في البيئة الإنسانية وموجود في كل زمان ومكان. وهناك من أصول النخل الساقط ما هو غير فارغ. وإذن يكون التشبيه بالخواء دليلاً على أن قوم عاد لم يكن فيهم من إيمان في حياتهم الدنيا فكأنهم كانوا أجساداً بلا أرواح.

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت].

س	الكاف	= العنكبوت اتخذت بيتاً يَقِيها الحر
مثل الذين اتخذوا من دون الله		والبرد والمطر
أصناماً يرجون نفعها وهو تَعلُّقٌ		
معنوي		

أعطى الله تعالى للمسلم صورة مَنْ اتَّخذَ من دون الله أصناماً حجرية أو بشرية يرجو نفعها من خلال صورة العنكبوت اتخذت بيتاً يقيها الحرَّ والبرد والمطر، والعنكبوت أمر كان قائماً في البيئة الإنسانية يوم نزول القرآن الكريم وما يزال قائماً. وهكذا وظفت العناصر البيئية واستخدمت فنياً لنقل الأسرار العلوية والمقاصد الإلهية. وهكذا تتسع لغة المدركات

عبر جسور التشبيه والمجاز وضرب الأمثال وسَوْق القَصَص.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ [العنكبوت] فإنَّ فيها من مشحون الإيحاءات ما فيها. وأيما مسلم يعرف دلالات اللغة ليعلمُ أنَّ في الآية سراً جاء التنويه به عرضاً. وها قد أثبت العلم أن الذي يصنع البيت هو أنثى العنكبوت لا الذكر، وإذاً فالتأنيث للعنكبوت ليس تأنيث لغة وإنما هو تأنيث إيحاء ودلالة. وقد تبين أن خيط العنكبوت لهو أمتن أنواع الخيوط بالنسبة إلى قطره، وإذاً يكون لهذا الوهن مع هذه القوة دلالة علمية كبيرة. وقد دل العلم على أن قطر الخيط الواحد منها لا يزيد على ثلاثة أعشار جزء من ألف من المليمتر. أي أنك تحتاج إلى ٣٣٣٣ خيط من خيوط العنكبوت، تجمعها وتصفها في رزمة واحدة ليصبح قطرها مليمتراً واحداً (ملحق مجلة العربي العدد ٢٢٢ - حزيران ١٩٧٧).

ومع متانة خيوط العنكبوت وهندسة بنائه إلا أن أساساته من الوهي بمكانٍ كبير إذ يقوم البيت على متعلقات واهية كورقة شجرة متحركة أو خشبة أو أساس غير ثابت. ومن ثم فإن هذا البيت المتين الرائع وهذا الجهد المنسَّق لا يقوى على مواجهة المطر أوالريح أو غير ذلك من أسباب التحصن، ووجه الشبه في الأمرين هو أن الذين يبحثون عن خالقٍ يعبدونه مثلهم كالذي يملك الخيوط القوية لبناء مستحكم ولكنهم بتوجههم بالعبادة إلى غير الله يكونون كَمَنْ ملك مادة البناء القوية ولكنها ترسى على أساسٍ واهٍ فلا ينتفع من قوتها[1].

---

(١) حاول الدكتور مصطفى محمود أن يفسر هذا الأمر علمياً فقال: إن بيت العنكبوت ليس بيتاً فيه الطمأنينة لكنه مصيدة تمارس فيها البطش والإرهاب حتى أن ذكر العنكبوت يولي هارباً وإلا كان جزاؤه القتل. والواقع أن هذا التفسير لا=

وواضح من التشبيه أن وجه قوة بين هذه المعبودات وبين خيوط العنكبوت القوية. ومعنى ذلك أن هذه المعبودات سواء أكانت حجرية أم بشرية أم فلكية لهي في الهيمنة بحيث ألقت في رُوع هؤلاء أنها قادرة على الخصب أو الخير أو الشر أو الانتقام، كما رأينا في قصة أخيل في الأدب اليوناني الذي تعاقبه الآلهةُ بشوكة في قدمه تودي بحياته، ومنها ما بلغ في التناسق والجمال مبالغ شتى كالنجم والقمر والشمس أو فينوس أو جوبيتر أو زيوس إلا أن هذه مهما علت في الهيمنة فهي على ضعف كما هو بيت العنكبوت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن].

الجوار: السفن الجوار، وهنا نابت الصفة عن الموصوف.

المنشآت: المحدثات.

الأعلام: الجبال. الكاف

س = الأعلام

الجوار المنشآت

ما كان منها وما سيكون معلوم محسوس

يَمُنُّ اللهُ تعالى على الإنسان بأنه يجري السفن التي تشبه الجبال في البحر. وهنا وإنْ كان طرفا التشبيه من عناصر البيئة الإنسانية، إلا أن أحد طرفي التشبيه خَفِيٌّ والآخر جَلِيٌّ. أما وجه الخفاء في الأول فهو في عدم الوقوف على ما سيكون من أمر هذه الجوار في مستقبل الزمان من

= يحمل على الإقناع لأن ممارسة البطش والقتل من جانب العنكبوت لهو قوة لها وليس وهناً، وكرر ذلك في صحيفة اللواء الأردنية عدد ١٧/ ٨/ ١٩٧٧م.

حيث حجمها. وهنا نحس أمام هذا التشبيه بِعِظَمِ القرآن الكريم وجلاله، فإن القارىء لهذه الآية ليحسُّ أن مستقبل البشرية كان ينبي عن بناء سُفنٍ تضارعُ الجبال العظيمة حجماً واتساعاً. وها هي ناقلات البترول العملاقة لهي في الواقع الذي كان يجاوز تصور الأجيال السابقة وهي في مزيد. وإذا لم تكن على عهد رسول الله ﷺ في حجم الجبال فإن هذا التشبيه كان نقلةً إيحائيةً إلى ما يتم به الله تعالى من مِننٍ على العقل الإنساني، هذه النقلة التي تنجلي بوضوح أكبر كلما أتيح بُعْدٌ من الزمانِ أكبر. وهكذا تكبرُ الحجةُ على العقل الإنساني كلما ازداد العقل الإنساني نضجاً ومعرفة. وفي ذلك يقول الخفاجي: شَبَّه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة(١).

وإنا لنستبعدُ هذا التفسير ونستبعد أن يكون في المنهج القرآني في التشبيه مبالغة، وإنما هو التطابق بين صورة خفية وصورة جلية، بين عالمٍ غيبيٍّ وعالم حسي ومدرك وهو ما يتسق في كل ما فسرناه بياناً ونفسره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس].

كالعرجون: كعود الشماريخ إذا عتق فإنه يرِقُّ ويتقوَّس ويَصْفَرُّ.

خفي	الكاف	
س	=	معلوم العرجون القديم

يقرب لنا رب العالمين أحوالَ القمر ودخوله في المنازل المختلفة حتى يَدِقَّ ويكاد يخفى بالعرجون القديم. والواقع أن للتشبيه في هذه الآية الكريمة إيحاءات مكثفة. فالقمر في تَقَوُّسهِ لهو شبيهٌ بالعرجون القديم من

---

(١) سر الفصاحة ص٢٩١.

حيث تقوسه. والعرجون القديم ذاوٍ لا حياة فيه وها نحن قد وجدنا القمر خلواً من الحياة وهو أمر كان على الناس في الماضي خفياً[1]. ودلالة أخرى وهي أن القمر يتناهى في الصغر التناهي يدق عن البصر، ولكنه في حقيقة الأمر لا يفنى وهي إشارة إلى الظواهر الجغرافية، ما كان أدعى العلماءَ المسلمينَ إلى أنْ يستجيبوا لها لو لم يُشْغل العالمُ الإسلامي بعد القرن الرابع الهجري بفتن سياسية لا تزال شرورها تكبر وتزداد.

وقوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الواقعة].

الكاف

س = اللؤلؤ المكنون

حوريات الجنة وهو أمر غيبي = أمراً معلوماً محسوساً

والحَوَر: شدة سواد العين في بياضها

عِينٌ: عيون نجل واسعة

المكنون: المَصُون والكِنُّ: هو الستر.

قوله الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] فأخرج مالاً يحس إلى ما يحس، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة. ولو قال: يحسبه الرائي ماء لم يقع موقع قوله «الظمآن» لأنَّ الظمآن أشدُّ فاقةً إليه، وأعظم حرصاً عليه[2]. إن الظمآن هو الذي يقامر بحياته في سبيل وَهْمٍ ولو بلغ الجزء من المليار ذلك أن أي شيء أحسن من لا شيء وهو

(١) سبق إلى هذه الإشارة د. مصطفى محمود في الفهم العصري للقرآن الكريم.

(٢) كتاب الصناعتين ص٢٤٠، سر الفصاحة ص٢٩١، المثل السائر ج٢ ص١٣٠.

الموت المحقق.

الكافرون يحسبون أن ما ينفقون من أموال في المشروعات الخيرية أو مساعدات للمحتاجين أو تظاهر بذلك على الأقل أنها سَتُقَرِّبُهم إلى الله زلفى. وهنا إشارة إلى الكافر الذي يظمأ إلى عفو الله تعالى بعد ضلال، وهذا لن يجد رِيّاً إلا من خلال الإسلام. والله تعالى الذي يزن الأمور جميعاً ومالك يوم الدين، يقرر في وضوح لا لبس فيه، أنَّ ظن هؤلاء في النجاة كظن الظمآن يرى السراب فيحسبه ماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

الظن والتقدير لدى الكافرين هو أمر عقلي ونفسي لا تطاله الحواس. إن الله وحده هو المطلع على الأفئدة وهو الذي يعلم ما توسوس به النفوسُ الكافرة. إن هذه الوسوسة هي (س) أو المجهول الذي لا يعلمه المسلم.

الكاف هي أداة التشبيه.

المشبه	الكاف
س	= السراب في القيعان
التوهم	يشبه الماء ولا ماء
بالخير	المشبه به = معلوم
المجهول	التوهم بالماء (محسوس)
معنوي	

وإذاً يَعْبُرُ المسلمُ إلى نفسية الكافر من خلال المدركات التي توجد في بيئته وما يقع عليه حسه. إن التشبيه هو القنطرة التي يتم عليها المعلومات من المعلوم إلى المجهول.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الدهر].

بصفة الولدان لا يشيبون.

	حسبتهم
س	= لؤلؤاً منثوراً
لقطة من مشاهد الجنة	(معلوم محسوس)

يُقَرِّبُ الله تعالى منظراً من مناظر أهل الجنة فيبدو القائمون على خدمة المؤمنين في نظرة كلية، ولنقل بعيني طائر كاللؤلؤ المنثور. ووجهُ الشبه لا شك هو صفاء البشرة ونقاؤها ونظافة الثياب وصفاء الآنية، ثم التوزع على الأماكن المختلفة. ومع كل هذه الإيحاءات سيبقى المشبه مَنْجماً لا ينضبُ من حيث غِنى الإيحاءات ودلالاتها.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المرسلات].

النار ترمي بشرر كأنه القصرُ[1] في عِظَمِهِ وارتفاعه.

والجِمَالات جمع جِمَالة جمع جَمَل. وقد يكون الحبل الغليظ.

شرر جهنم	الكاف
س	= القصر
	كأن
شرر جهنم	= جمالات صفر

شرر جهنم صورة غيبية تأخذ وضوحاً لدى المسلم من خلال التشبيه

---

(١) قرأ ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: كالقَصَر، وفَسَّره بأعناق النَّخل. وقال الزمخشري: فُسِّرت هذه القراءة باعناق النَّخل وأعناق الإبل. مختار الصِّحاح: **قصر**.

بالقصر وهو أمر منتزع من البيئة الإنسانية. وكذلك الجمالات الصفر. وهكذا توظف البيئة والمدركات للتعبير عن الغيب عبر قناطر التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ [المعارج].

المهل: ذائب الفضة.

العهن: الصوف.

س الكاف

السماء يوم القيامة = المهل

وهو أمر مجهول وهو معلوم

الجبال يوم القيامة وهو أمر مجهول= العهن (وهو أمر معلوم)

س

وهكذا يُبَصَّرُ المسلمُ بأحوال القيامة من خلال مدركاته وبيئته. وواضح أن السماء ستكون من الوهي بحيث أنها تذوب كذائب الفضة وتكون بغير وزن يذكر كما هو الصوف في خِفَّتهِ وطيرانه. وفي هذا إيحاءة سابقة إلى تفاوت الأوزان في الأبعاد المتفاوتة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج].

الأجداث: القبور.

سراعاً: إلى المحشر.

نُصُب: أعلام أو رايات منصوبة.

يوفضون: يسرعون.

خروج الموتى من قبورهم إلى المحشر سراعاً.

س		كأنهم
هو أمر غيبي		= يسرعون إلى موضع راية أو مَعْلَم
		بارز

يصور لنا رب العالمين حال الموتى يخرجون من الأجداث إلى صعيد المنشر وبصورة مفزعة وتلقاء ذاتي وكأنهم يسرعون إلى مَعْلَمٍ متفق عليه بينهم. إنها صورة رهيبة حقاً فيها ما فيها من غنى الإيحاءات. ترى ما الذي يدفع الموتى إلى أن يندفعوا هذه الاندفاعة إلى مكان الحشر. إنه أمر إلهي يفتح على المسلم باباً من التفكر من خلال قنطرة التشبيه على ما يُضارع مثله في البيئة الإنسانية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون].

كأنهم خشب مُمَالة إلى الجدار

		كأنهم
س		= خشب مسندة
المنافقون في عِظَمِ أجسامهم		
وقلة نفعهم		

تقريب أحوال المنافقين إلى الرسول ﷺ من خلال البيئة الإنسانية، وواضح أن الخشب التي تستند إلى الجدار هي خشب كبيرة وعظيمة، ولكن هذا العِظَمَ ينتقض من خلال جهنم كما في سياق الآية الكريمة:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون].

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل].

المشبه حركة الأرض وهي مجهولة = مر السحاب وهو معلوم.

وهو ما تستدلون به على حركة الكرة الأرضية، وإذا كانت حركة الأرض غير واضحة بالنسبة للإنسان من حيث حِسُّه، فقد أدخل عليها باب من الحِسِّي فوضحت به.

وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل] دليل على أن هذا في الحياة الدنيا، وليس يوم القيامة كما قد تغري به الآية التي قبلها، وكما ذهب إليه بعض المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات].

حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

عِين: واسعة العيون.

بيض النعام المستور بريشه لا يصل إليه غبار ولونه البياض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء.

الكاف

س	= البيض المستور
أمر غيبي	(معلوم محسوس)

ووجه الشبه: اللون الأبيض + الصفاء + الحصانة

وعبور الغيب من خلال المدرك عبر قنطرة التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات].

كأن

س = رؤوس الشياطين

أمر مغيب

وقف البلاغيون والمفسرون بإزاء هذا التشبيه موقفين:

١- إن الشياطين هنا هي الحيات[١]. أو هي جبالٌ بمكة[٢].

٢- رؤوس الشياطين غير مشاهدة، إلا أنه قد استقرَّ في نفوس الناس من قُبحِ الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد[٣].

ونحن - التزاماً مع المنهج الذي نحوناه - نرى أن تفسير الشياطين بالحيات أمرٌ مُستبعَدٌ لأنه يتنافى وصريح الدلالات للألفاظ. ولو كان المقصود هو الحيات ما الذي كان يحول دون ورودها وقد ورد ذِكْرُ الحَيَّة؟ والأمر الثاني هو أن طَلْعَ شجرة الزقوم أمر غيبي، والتشبيهُ برؤوس الشياطين هو تشبيهٌ بأمر منتزع من البيئة الإنسانية، إذ العقل البشري قادر وإن لم يَرَ الشياطينَ أن يُشَكِّلَ لها في مخيلته صورة كأقبح ما تكون. بل إن عدم تحديد هيئة قبيحة واحدة لهو أغنى في التأثير، إذ يظل كل عقل يخرج من هيئة إلى هيئة كل منها مخوفة في القبح، وهي صورة لا حدود لها من حيث قوة التأثير، وأعمال الرهبة.

---

(١) سر الفصاحة ص٣٠٠.
(٢) الجمان ص٢٤٨.
(٣) سر الفصاحة ص٣٠٠.

وهكذا كان التشبيه فتح باب من المدرك ولو بالقوة المتوهمة أو المخيلة على الغيبي.

وفي اللسان العربي ما يرفد هذا التفسير، وهو قول امرىء القيس:

أيقتلُني والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ

وأنياب الأغوال مما لا يدركها الحِسُّ لعدم تحققها وإنما هي مبنية على قوة التوهم[1].

يقابل ذلك التشكيلُ الحسن للمَلَكِ الكريم في المخيلة كما ورد على ألسنة النسوة: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف].

والمَلَك الكريم لا يُرى، ولكنه ما استقر في الذهن البشري من حيازته لشطرٍ من الحُسْن كبير.

وقوله تعالى عن بلقيس: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ ﴿٤٢﴾﴾ [النمل] فتح باب المعرفة على الجديد من خلال معرفة الأصيل، لأنَّ أُنْسَ النفوس موقوف على أن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة] حتى في الجنة بقي المؤمنون يوظفون مدركاتهم السابقة ومعطياتهم الثقافية في استيعاب المناخ الجديد والتصوير الجديد.

---

(١) تلخيص المفتاح ص٢٢٨.

ولا غرو في ذلك فالجنةُ في نفوس المؤمنين قد مرت من الدنيا ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد] وهذا التعريف كان من خلالِ التقريبِ بما هو معروفٌ في المدركات وفي الحياة الدنيا.

وهكذا نجد أن منهج التشبيه في القرآن الكريم عقدَ (معاقدَ نَسَبٍ وشبكة)[١] بين ما يُرادُ كشفهُ أو إيضاحه وبين أمرٍ واضح ماثل يمكن للناس أن يتحققوه وأن يتثبتوا منه كل زمان ومكان، وهذا في الأسباب التي تجعل القرآن الكريم ميسراً للذكر لدى سائر الناس سائر الأوقات. إن كل متصل ببيئته مهما كانت في الغنى البيئي أو الفقر يستطيع أن يظفر ببعض معاني القرآن الكريم ويظل يتعلق بالإيحاءات المتكثرة التي لا يشبع منها نظر ولا يحيط بها فكر.

ثم إنه قد تبين لنا أنْ منهج التشبيه في القرآن الكريم لَهُوَ كمعادلة الرياضيات سواء بسواء، وأنَّ طرفي المماثلة لَهُمَا في التساوي الحقيقي، وهو ما لم تألفه أساليب العرب في القول التي كانت تنحو منحى المبالغة في الصفة أو اللون أو الحركة حتى لقد اشترط بعضهم[٢] أن تكون الصفة في المُشَبَّهِ به أقوى منها في المشبه.

إن هذه الرياضية المطلقة لَتجعلُ التشبيهات في القرآن الكريم أمراً مُبْرَماً وقوانينَ حتمية. بل إنها تفوق القوانين الحتمية من حيث وضوح الدلالات البعيدة والمقاصد الخفية، وبذا فإن الإلزام بها أوكد وأوثق، وهو ما يضيف إلى مبدأ الاقتصاد في اللغة وأسرار الإعجاز.

---

(١) الألفاظ للإمام عبد القاهر أسرار البلاغة ص١٣٦.

(٢) يقول ضياء الدين الأثير: فالتشبيه إذاً يجمع صفات ثلاث، هي: المبالغة، والبيان والإيجاز، المثل السائر ج٢ ص١٢٣.

التشبيه من حيث هو مفرد ومركب:

التشبيه من حيث وجه الشبه يأتي على ضربين:

أ- مفرد: كقول النبي ﷺ: «إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي» يريد الخبزة البيضاء[1].

وقول النابغة الذبياني:

وإنَّكَ كاللّيل الذي هو مُدْرِكِي   وإنْ خِلْتُ المُنْتَأى عَنْكَ وَاسِعُ[2]

وقول امرىء القيس:

كَأَنَّ قُلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابساً   لدى وَكْرِها العُنَّابُ، والحَشَفُ البالي[3]

يَصِفُ عُقاباً بكثرة الصيد وهنا شَبَّهَ قلوبَ الطير رطبةً بالعُنَّاب لاشتراكهما في اللمعان والحمرة. وشَبَّه قلوبَ الطير يابسة بالحشف البالي للاشتراك في اليبوسة واللون الأحمر الباهت، إن الكلامَ معقودٌ على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة، إلا أن أحدهما لا يُداخل الآخر في الشبه. كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان واحد، وكذلك لو فرقت التشبيه فقلت:

«كأنَّ الرطب من القلوب العنَّاب وكأنَّ اليابس حَشَفٌ بالٍ، كونهما لم

---

(١) المثل السائر ج٢ ص١٩.

(٢) المصدر ذاته ج٢ ص٣٤٢.

(٣) ابن المعتز كتاب البديع ص٦٩، طبقات فحول الشعراء ج١ ص٨، نهاية الإيجاز ص٧ وكرها: عشها، العناب: شجر كحب الزيتون أحمر، والحشف: أردأ التمر.

والانخفاض، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضاً. ثم إن أشكال السيوف مستطيلة. ثم قوله: «تَهَاوَى» لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهاتُ حركاتها وكان لها في تهاويها تواقع وتداخل ثم إنها بالتهاوي تستطيلُ أشكالها[1].

لم يقصد تشبيه النقع بالليل والسيوف بالكواكب، بل شَبَّه صورة مثار النقع فوق الرؤوس مع مصاحبة الأسياف في حركاتها بليل تهاوى كواكبه، وواضح أن الواو في أسيافنا هي واو المعية وليست لمحض العطف. إنه تشبيه صورة خاصة حاصلة من اجتماع العناصر الأولى بصورة ممثلة من اجتماع العناصر الثانية. والليلُ المتهاويةُ كواكبهُ صورةٌ مُتخيَّلة أفرزها خيالُ الشاعر وإن كانت عناصرها مستمدة من البيئة والمدركات.

وهكذا نحس أن الصورة هي مركب جديد يختلف عن الليل بمفرده وعن الكواكب بمفردها. إنها صورة تداخلت فيها الألوان والحركات وأصبح لها هوية جديدة تختلف عن كل مُكَوّنٍ بمفرده، تماماً كالمركب الكيميائي: فملح الطعام أو كلوريد الصوديوم هو ذرة صوديوم مع ذرة كلور، الصوديوم قابل للاشتعال في درجات الحرارة العادية والكلور غاز وكلاهما سام. إن خصائص ملح الطعام تختلف عن كل مكون بمفرده. وكذلك الماء H2O الذي هو عبارة عن اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين. الهيدروجين غاز وكذلك الأكسجين، والأول مشتعل والثاني يساعد على الاشتعال، بينا المُرَكَّب الجديد سائلٌ وهو يُطفيء النار في درجات الحرارة غير العالية.

ومن التشبيه المركب قول أبي طالب الرَّقِّي:

---

(١) انظر: نفس المصدر ص١٦١، والجمان ص٢٢٣، وتلخيص المفتاح ص٢٣٧.

تر أحد الشيئين موقوفاً في الفائدة على الآخر[1].

ومثله قول المتنبي:

بَدَتْ قمراً وماسَتْ خُوطَ بانٍ   وفاحَتْ عنبراً ورَنَتْ غزالا[2]

فهنا تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء لا يقيم الترتيب فيها على نسق مخصوص غير تُوخِّي الوزن.

ومثل هذا قولك:

«زيدٌ كالأسد بأساً، والبحرِ جُوداً، والسيفِ مضاء، والبدر بهاء» لم يجب عليك أن تحفظ هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً، بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به في الحسن وأَخَّرْتَ تشبيهه بالأسد في الشجاعة كان المعنى بحاله[3] ومثل هذا التشبيه نُسميه تشبيهاً مفرداً ولو اشتمل على وجوهِ شَبَهٍ كثيرة مفرقة.

ب- مركب: وذلك كقول بشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوق رؤوسنا   وأسيافَنا لَيْلٌ تَهاوى كَواكِبُهْ

عَبَّر عن هيئة السيوف وقد سُلَّتْ من الأغماد وهي تعلو وترسب، وتجيء وتذهب، ذلك أنَّ لها في حال احتدام الحرب، واختلاف الأيدي بها في الضرب، اضطراباً شديداً وحركاتٍ مسرعة، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالاً تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص١٧٧.
(٢) نفس المصدر ص١٧٨.
(٣) أسرار البلاغة ص٩٦-٩٧.

وكَـأَنَّ أجـرامَ النُّجُـومِ لـوامعـاً　　دُرَرٌ نُثِـرْنَ علـى بسـاطٍ أزرقِ

شبَّه النجومَ طالعات في السماء مفترقاتٍ مؤتلفاتٍ في أديمها وقد مازجت زرقةُ لونها بياضَ نورها بدر منثور على بساط أزرق[1].

والتحديق في المُشَبَّه به يعين وقت رؤية ذلك، إذ إن الزرقة وكثرة النجوم الذين يؤديه معنى النثر يشير إلى أن السحر هو ساعة هذا الوصف.

ومنه قول الصنوبري:

وكـأنَّ مُحْمَـرَّ الشَّقِيـ　　قِ إذا تَصَـوَّبَ أو تَصَعَّـدْ

أعـلامُ يـاقـوتٍ نُشِـرْ　　نَ علـى رمـاحٍ مـن زبَـرْجَـدْ

لأنك في هذا النحو - كما يقول الإمام عبد القاهر - تحصل الشبه بين شيئين تقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم[2].

وكقول المجنون:

كَـأَنَّ القَلْـبَ ليلـةَ قِيْـلَ يُغْـدَى　　بليلـى العَـامِـريَّـة أَو يُـرَاحُ[3]

قَطَـاةٌ عَـزَّهَـا شَـرَكٌ فَبـاتَـتْ　　تُجَـاذِبُـه وَقَـدْ عَلِـقَ الجَنَـاحُ

وواضح أنه يشبه القلب المضطرم القلق بقطاةٍ لها وضع مخصوص وصورة معينة.

---

(١) أسرار البلاغة ص١٤٦.

(٢) نفس المصدر ص١٥٤.

(٣) كتاب الصناعتين ص٤٢.

وكقول عنترة:

وَخَلاَ الذُّبَابُ بها فليس بِبَارِحٍ غَرِداً كفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجاً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بذراعه قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ[1]

إنه تشبيه تمثيل. إنه صورة بصورة.

وقد فَرَّع البلاغيون المسلمون التشبيه من حيث وجه الشبه فيه إلى أربعة أنواع:

١- تشبيه مفرد بمفرد.

٢- تشبيه مركب بمركب.

٣- تشبيه مفرد بمركب.

٤- تشبيه مركب بمفرد.

أما التشبيهات الثلاثة الأولى فأمثلتها كثيرة خلا التشبيه الرابع الذي يقول ضياء الدين بن الأثير إنه لم يجد عليه شاهداً غير قول أبي تمام في وصف الربيع:

يا صَاحِبَيَّ تقصيا نَظَرَيْكُما تَرَيا وُجُوهَ الأرْضِ كيف تَصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مشمساً قَد شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَا فكأنما هو مُقْمِرُ

فشبه النهارَ المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر[2].

---

(١) سر الفصاحة ص٢٩٣. هَزِجاً مسرعاً. المكب: المقبل على الشيء، الأجذم: المقطوع. والإشارة ههنا إلى ذُباب الفاكهة.

(٢) المثل السائر ج٢ ص١٥٢.

وسنضرب صفحاً على هذه التعريفات، ونلتزم طريقاً واحداً ينسجم والخط الرياضي الذي نهجناه.

وإذا كانت المعادلةُ الجبرية تُعَدُّ بأعلى أُسٍّ يُرفع إليه أيِّ مجهولٍ فيها، فإننا سنعد التشبيه مركباً إذا توافر فيه طرف مركب واحد على الأقل.

تشبيه التمثيل في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

مثل الحياة الدنيا

س = (أنزلناه من السماء... حصيداً)

نلاحظ أن المشبه به هو عشر جمل إذا فُصلت، وهي لوحات مختلفة نُسقَ بعضها على بعض بترتيب زماني ومكاني، ووجه الشبه حاصل من تكاملها ضمن هذ النسق. إن الشبه مُنتزَعٌ من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطرٍ عن شطر، حتى إنك - كما يقول الإمام عبد القاهر - لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه[1]. ولو شئنا التعبير الرياضي لقلنا: إن س = ما دخل القوس جميعاً ويعامل كوحدة واحدة وعلى ذات النسق.

---

(١) أسرار البلاغة ص٩٦-٩٧. انظر في تفسيرها بيانياً: المثل السائر ج٢ ص١٣٩، وتلخيص المفتاح ص٢٤٢.

إن مثل الحياة الدنيا هو شريط (فيلم) يتكون من عشر لوحات:

اللوحة الأولى: الماء ينزل من السماء. هل بالإمكان أن يؤخذ لقطة تصويرية لمنظر ماء ينزل من السماء؟ والجواب حتماً بالإيجاب. وإذن يؤخذ منظر هذا شأنه ولنعطه الرقم ١ ويلاحظ ربط إنزال الماء بالله تعالى، وبالتالي فالمشبه والمشبه به ينتميان إلى ذات النظام.

اللوحة الثانية: فاختلط به نبات الأرض. الفاء تفيد النسق والترتيب وإذن فهذه اللوحة تنسق على اللوحة الأولى. هل بالإمكان تصوير قطرات ماء السماء وقد داخلت نبات الأرض؟ والجواب حتماً بالإيجاب. وإذن يؤخذ منظر رقم ٢.

اللوحة الثالثة: أكل الناس: هل بالإمكان أخذ لقطة مصورة لإنسان يأكل فاكهة: نعم.

اللوحة الرابعة: هل بالإمكان أخذ لقطة مصورة لبعير يأكل عشباً: نعم. وإذاً تؤخذ مناظر تمثل ذلك.

اللوحة الخامسة: أخذت الأرض زخرفها. هل يمكن أخذ لقطة تصويرية لمنظر بدت فيه الأرض تكتسي خُضْرةً وجمالاً في الربيع؟ نعم يمكن ذلك.

اللوحة السادسة: هل يمكن أخذ لقطة مصورة لوجه الأرض وقد بدا بالغ التزيي والحسن؟ نعم.

اللوحة السابعة: هل يمكن أخذ لقطة مصورة لجني المحصول أو لموسم الحصاد ووفرة الإنتاج؟ نعم يمكن ذلك، بل أكثر من ذلك يمكن تخيل لوحة فنية للشعور النفسي الذي يعكس الجذل والسعادة الضافية

ـالثقة الكبيرة بمستقبل رخي.

اللوحة الثامنة: هل يمكن تصوير كارثة (كالزلزال أو الفيضان) تحل ي الأرض في مكان ما ليلاً؟ نعم.

اللوحة التاسعة: هل يمكن تصوير الكارثة تحل بالأرض في مكان ما نهاراً[1]؟ نعم يمكن ذلك.

اللوحة العاشرة: هل يمكن تصوير وجه الأرض بعد الكارثة؟ نعم ـمكن ذلك.

إن جِماع هذه اللوحات والمشاهد هي مثل الحياة الدنيا. وواضح أنه كلما كانت اللوحات أكثر تحريكاً للنفس وأكثر اتصالاً بالحياة كان لانطباع العام الذي تتركه أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً. وواضح أن هذه للوحات يستمدُّها كلُّ واحد من بيئته بقدر غناها البيئي من قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس] وبقدر الجمال الذي يتراءى للعينيين ـالنفس. كما أن هذه اللوحات على تتابعها وفق نسق معين ينسق ثانيه على أوله وثالثه على ثانيه وهكذا، إلا أنها متكثرة في اللون والنكهة ـالطعم والحركة والصوت تكثراً لا نهاية له. فكثافة الماء النازل من لسماء وصفته يتفاوت بتفاوت البيئات المختلفة، ثم نوعية الأرض ـالنبات والناس والأنعام، وكل هذه الجزيئات لهي في التكثر الذي لا يعرف حدوداً.

---

١) يذكر د. مصطفى محمود في تفسيره أن قوله تعالى: ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس] دليلٌ على كروية الأرض إذ أن كل بقعة تكون ليلاً بالنسبة إلى مكان وتكون نهاراً بالنسبة إلى آخر في ذات الوقت. وانظر: أحمد محمود سليمان (القرآن والعلم. ط٢ دار العودة بيروت ١٩٧٤م.

وواضح أن كلما خطا العقلُ خطوات أفضل في عالم الجماليات، وفي دنيا التصوير والفنون كان أقدر على التغلغل إلى دنيا التمثيل في القرآن الكريم وأكثر استجابة لشفافيات الجمال واللطائف فيه، وذلك ما يتفق وموافقة الإعجاز البياني لكل زمان ومكان. إن الحجة بالقرآن الكريم لا تكسب مع مرور الزمن إلا ازدياداً.

إنَّ جَمَالَ المُرَكَّبِ يَفْضُلُ المُفْرَدَ لأنَّ الحِسَّ إنما يُدْرِكُ المُرَكَّبَ من حيث هو شيء واحد، فأما تفصيل تلك الأجزاء بعضها عن البعض، وتمييز ما يكون داخلاً في حقيقته عما يكون خارجاً، فذلك إنما يتم بالعقل، لأن الحس كما يقول فخر الدين الرازي بما هو أشد إجمالاً أقدم من شعوره بما هو أشد تفصيلاً، فإنكَ بالنظر الأول إنما تدرك المرئيَّ إدراكاً إجمالياً ثم ترى التفصيل بعد ذلك، وهكذا السمع فإنك تقف من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية على ما لم تقف عليه بالسماع الأول[1] ومن المعلوم - كما يقول فخر الدين الرازي - أن بإدراك التفصيل تقع التفاضيل بين راءٍ وراء وسامعٍ وسامع[2].

وصدوراً من مبدأ المركب والإجمالي فإن وضوحاً في منهج القرآن الكريم سيكشف لنا آفاقاً كبيرة وسيجيب عن أسئلة كثيرة وقف عندها بعض البلاغيين والمفسرين.

ومن التشبيه المركب قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۝٥﴾ [الجمعة].

الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية

---

(١) نهاية الإيجاز ص٧١.

(٢) نفس المصدر ص٧٢.

العلوم ومستودع ثمر العقول ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها، فهو مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض[1]. وهذا (فيلم) من منظرَيْن: منظر الحمار لوحة رقم (١) ومنظر الأسفار لوحة رقم (٢) والصورة مشتقة من نسق المنظر الثاني على الأول وتناولهما معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

س=

أعمال الكافرين = شريطاً من

لوحة رقم (١) منظر سراب على قيعة

لوحة رقم (٢) صورة الظمآن ينظر إلى شبه الماء بلهفة

لوحة رقم (٣) صورة ظمآن يمشي ملهوفاً

لوحة رقم (٤) صورة تتابع المشي بلا غناء ولا طائل

لوحة رقم (٥) صورة الظمآن وهو ميت عطشاً

لوحة رقم (٦) تصور منظر الظمآن يلقى حسابه

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

---

(١) أسرار البلاغة ص٩١، نهاية الإيجاز ص٦٧.

أعمال الكافرين	أيضاً
	= فلماً يتكون من الآتية: (١) لوحة لظلمات في بحر عميق لِنَقُلْ المحيط الهندي أو الأطلسي مثلاً. وواضح أن التكثر في العمق والسعة لهو في اللامتناهي. وكلما كان ذلك أقرب من اللامتناهي كانت الصورة أقرب إلى المقصود (٢) فوق البحر العميق موج رقم (١) لقطة مصورة لهذا الموج مع حركة الغشيان بالطبع (٣) مصورة مع التسجيل لموج رقم ٢ الذي يعلوه (٤) لقطة مصورة لسحاب متصل فوق موج رقم ٢

أسفل هذه الظلمات جميعاً وفي قعرها تماماً إنسان أي إنسان له مواصفات الإنسان في السمع والبصر واليدين والرجلين ٥٠ لقطة مصورة له. ثم ٦ لقطات مصورة له وهو يُخرج يده وهي مُغَيَّبَةٌ في الظلام من غيره رؤية. إن هذا الفيلم بمجموعه هو حال الكافرين. وواضح أن هذا التشبيه دليل على ظلمة نفوس الكافرين وعدم تَبيُّنِهم لأيٍّ من تضاعيف الحق والحكمة في أي من التفاوت أو الأحوال، بل إن الرَّيْنَ على قلوبهم شامل. وأنْ لا حظَّ لهؤلاء في الآخرة مهما قدموا من أعمال وتبرعوا بأموال.

وواضح أن صورة السراب لهي صحراوية المنظر بَيْنَا هذه شاطئية لتكون ذلك في الغنى البيئي للمسلم. وسواء أكان الموج الثاني مستمداً من الحياة أو مُتَخَيَّلاً فإن التَّخَيُّل هو أيضاً من المدركات وما يمكن للعقل البشري أن يتوهمه. وإذاً ليس ضرورياً أن تكون جزئيات الفيلم جميعاً صوراً واقعة، بل لعل بعضها يكون انطباعات نفسية ولحظات تَرَقُّبٍ أو تَحَسُّبٍ، وهي أكثر جمالاً من الرؤية الواقعة. هذا وقد تبين أن هناك موجاً ثانياً ولا يسير عمودياً ولكن يسير أفقياً مع طول الموجة. فإن يكن فإن ذلك في التدبر الذي ينبغي أن يعكف عليه العلماءُ المسلمون ويستخرجوا أسراره البيانية. وقد رُوِّينا أن أحد البحارة الغربيين قد أسلم لما أن اطَّلَعَ على تفصيلات هذه الآية، لقرب معاناته مع جو الظلمات في البحار.

وقوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ [الحديد].

الحياة الدنيا الكاف

= (لعب... متاع الغرور)

المُشَبَّه به هو فيلم من لوحات ومناظر نسق بعضها على بعض بترتيب زماني ومكاني.

لوحة رقم (١) هل يمكن أخذ صورة أو لقطة أو لوحة لحالة من حالات اللعب، ولنقل كرة القدم مثلاً؟ نعم.

لوحة رقم (٢) صورة للهو.

لوحة رقم (٣) صورة للزينة والتَّزَيي والتأنق في المأكل والملبس.

لوحة رقم (٤) صورة للتفاخر والتباهي. مُجَسَّدة مُعَبّرة أو نفسية مستوحاة.

لوحة رقم (٥) صورة للتكاثر في الأموال: منظر غلة شركة وهو ينمو كل يوم ويزداد.

لوحة رقم (٦) صورة تكاثر في الأولاد.

لوحة رقم (٧) صورة غيث مما يفيدُ الزراعة وينفعِ الموسم.

لوحة رقم (٨) صورة لنبات كان غب الغيث وبه تكون.

لوحة رقم (٩) صورة للنبات وهو ييبس ويذبل.

لوحة رقم (١٠) صورة للنبات في آخر حالات الصفرة والذبول.

لوحة رقم (١١) صورة النبات وقد يبس وتبخر منه الماء وأصبح مُهشَّماً مفتتاً.

لوحة رقم (١٢) صورة مستوحاة للآخرة والعذاب الشديد.

لوحة رقم (١٣) صورة لمناخ المغفرة والرضوان.

واضح الترتيب الزماني أيضاً في هذا الفيلم المستمد من الحياة أو هو الحياة. وفي وقت كان التشبيه المفرد يعطي لقطةً فنية سريعة لموضوع معين، فإن عامل الزمن وعوامل النمو والتحول تأخذ أبعادها في تشبيه التمثيل. وواضح أن وجه الشبه هو تبيان موقفين من الحياة: موقف مَنْ

يرى الدنيا لعباً وزينة فيتعلق بها ويلهه الأمل حتى يلاقي وجه ربه وفي الآخرة عذاب شديد. وموقف مَنْ يرى الدنيا عَرَضاً زائلاً ونعيماً غير مقيم، فيأخذ للمآل أُهْبته ويتزود بزاد التقوى. وهذا ينتظره جو الرضوان والمغفرة.

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة].

مثل

مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله = (حبة... يشاء)

ويتضح هنا بروز عامل الزمن والتراخي الزمني في المشبه به. وهنا يأتي المشبه به فيلماً من لوحات متعددة وبنسق معين والتشبيه هو مجموعها.

لوحة رقم (١) وهي منظر حبة تنبت سبع سنابل. ولما كان زمان الإنبات بطيئاً فستكون هذه اللوحة غنية بأي لقطة كانت للنبتة وهي في أطوار النمو.

لوحة رقم (٢) صورة مكبرة لجزئية في النبتة وهو عدد الحبات في كل سنبلة.

لوحة رقم (٣) لوحة مستوحاة من مضاعفة الـ ٧٠٠ مثل سواء أكان من عملِ جهادٍ أو زكاة أو تكثر نفع. وهذا لا نهاية لتكثرها وغناها. وهي مجال استلهام واستيحاء. ولنتصور على سبيل التمثيل امرءاً استطاع أن يهدي أحد الغافلين إلى اعتناق الإسلام. ثم لنسمح للبعد الزمني أن يبرز، ولنتتبع من ولد الرجل في الأجيال المتعاقبة وتكثر ذريته. فحتماً

سنجد أن عدد ٧٠٠ جائز أن يتضاعف في خلال مدة بسيطة، ثم هذه المضاعفة تتضاعف أيضاً وهلم جراً. وهكذا يجد مَنْ قَدَّمَ في سبيل الله عملاً ظنَّه بأجر قد ظل يتوالد أجوراً كثيرة. وهكذا أعمال الناس في سبيل الله، منها ما يصل إلى سبعة أضعاف ومنها إلى مئة ضعف ومنها إلى ٧٠٠ ضعف ومنها إلى (٧٠٠) ٢ ومنها إلى (٧٠٠) ٤ ومنها إلى (٧٠٠) ٨ وهكذا على تفاوت النماء والانتفاع إذ كل حبة بدورها من السبعمائة ستدور ذات الدورة.

والوقوفُ التي يُنفَقُ من ريعها على المصالح الإسلامية صورة أخرى غنية بالإيحاء ولو أردنا أن نمثل الفيلم رياضياً لقلنا:

١ × ٧ = ٧

٧ × ١٠٠ = ٧٠٠

(٧٠٠) ٢

(٧٠٠) ٤

وهلم جَرًّا مع المحافظة على نسق الترتيب.

إن صورة التكثر لأجرِ ما ينفقُ في سبيل الله لَهِيَ من سعة الغنى ما يضع المسلم في موقف من لا يستهين بالجهد الصغير يقدر عليه في سبيل الله. إن النفع بهذا الجهد ليس مما تتبين آثار نتائجه في الحياة القصيرة. وهذا ما يفسر قوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة» وقوله ﷺ: «اتق النار ولو بشق تمرة» وقوله ﷺ: «خير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة» يقصد النبع ينفع الله به الناس والأنعام والنبات ويتضاعف أجرُ صاحبه وهو في داره نائم.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر].

صورتهم وهم معرضون عن الذكر		كأن
= (فيلماً معيناً)

هذا الفيلم يمثل أكثر من لقطة:

لوحة رقم (١) منظر حُمُر الوحش نافرة.

لوحة رقم (٢) منظر ارتسام الذعر على تصادمها.

هذه الحمر لفرط خوفها وتعرضها للقسورة سواء أكان الأسد أم الصيادين.

وواضح أن الفيلم هنا يصور ملامح النفس + الحركة العمياء + أصوات الذعر. إنه الصوت والصورة لدرجة يكادُ المرءُ يسمع مع التمثيل جلبة هذا النفار والذعر.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف].

مثل الذين كذبوا بآيات الله

كمثل		= (الكلب في أحوال مختلفة).

إنه فيلم من لقطتين:

١- صورة كلب يحمل حملاً ويلهث.

٢- صورة كلب لا يحمل شيئاً ولهاثه مستمر.

وهكذا فإن تشبيه التمثيل يتيح الفرصة للحركة والتفاوت، بينا التشبيه المفرد لا يعدو أن يكون صورة ساكنة لمنظر واحد، أو صورة ساكنة لمنظر واحد يشتمل على ألوان متعددة سواء ما كان منها قابلاً للتصوير أو قابلاً للتصور.

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت].

لعل هذه الآية الكريمة تصح أن تكون موضع الالتقاء بين التشبيه المفرد وتشبيه التمثيل. وإنها وإن كانت تمثل أمراً واحداً فإنها في تشبيه التمثيل لأدخل، وذلك لقوله تعالى (اتخذت). ولو كان المشبه كبيت العنكبوت لكانت الصورة ساكنة وكان التشبيه مفرداً.

وإذا لم تكن المصطلحات لتعنينا أكثر من اعتنائنا بالنص والتعامل مع كل نص كما لو كان حياةً قائمة بنفسها وكما لو كان وحدة واحدة هي نسيجةُ وَحْدِها، إلا أن وجود الفعل «اتخذت» يجعلها أدخلَ في التمثيل. إن الاتخاذ لا يكون بالإيجار حتماً، وإنما تقوم أنثى العنكبوت بتهيئة البيت وإعداده والصبر على لأوائهِ. ولو أتحنا لعدسة الكاميرا أن تسجل كل هذه الخطوات لظفرنا بلوحاتٍ متعددة وتعاقبٍ زمني كثير يفسره قوله تعالى: «اتخذت». وهو فرق ما بين الصورة الصامتة الساكنة والصورة المتحركة التي تضارع الحياة في نموها وتعاقب أحوالها.

وبالمقابل نستطيع من خلال هذا التفريق أن نقرر أن التشبيه في مثل قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر]. مفرد، ذلك أن المشبه به في كُلٍّ هو صورةٌ

ساكنة وإن تداخلت أجزاؤها.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة].

يأتي نسق الآيات القرآنية الكريمة في معرض تبيان معسكري الإيمان والكفر:

١- المتقون الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون، والذين يؤمنون بما أُنزلَ إلى الرسول ﷺ وما أُنزلَ من قبله وبالآخرة هم يوقنون.

٢- الكافرون: سواء أُنذروا أم لم يُنذروا لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة.

ثم يأتي تعريف المسلمين بالمنافقين الذين فيهم صفات من هذا المعسكر وصفات من ذلك أو هكذا يخيلون. وقد بين الله صفتهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] الآيات.

وحتى يزداد وضوحُ أمرِهم للمسلمين أتى الله تعالى بصورة لهم ممثلة حتى تكون في النفس أوضح.

مثلهم (أي المنافقين) = (فيلماً متكاملاً).

ولما كان مَثَلُ المنافق يساوي الصورة المركبة أو الفيلم الكامل، فإن الضمائر التي ستنسق في هذا الفيلم ستكون أمراً يتصل بهذا الفيلم وهذا التعريف لا علاقة له بالنفاق إلا في الصورة المجملة.

لوحة رقم (١) منظر رجل أي رجل في أي زمان وفي أي مكان يوقد ناراً.

إن هذه لوحةٌ من الحياة يمكن إعادتها في كل زمان ومكان. وليس للوحة هذه معنى في نفسها دون أن تكون عنصراً يدخل في التركيب الجديد ويتخلى عن ملامحه الأولى.

وإذن فنحن ضد تفسير هذه الآية تفسيراً مجزَّءًا، إذ ليس من منهج التشبيه في القرآن الكريم أن ينظر إلى جزئيات الصورة المركبة. وإذاً، وانسجاماً مع هذا المنهج نرى أنه لا مكان لتأول تفسير النار بالهدى لأن النار هنا هي حقيقية وليس مجازية[١]. وإذا جاز للبعض أن يفسروا النار بالهدى[٢] فإن البعض الآخرِ من المفسرين وعلى رأسهم الزمخشري في «الكشاف» ذهب إلى أن النار هي نار الفتنة والغَوَاية. وإذا لم يكن من سند يشفع لتأول الأولين فليس من سند أيضاً يشفع للآخرين. ولا يَحلُّ هذا التأول إلا أن تكون النارُ حقيقيةً كلوحة في فيلم متكامل إنا ناظرون نسقه.

لوحة رقم (٢) صورة النار المتقدة وقد أضاءت ما حول المستوقِد.

وواضح أن الإيقاد يوحي بتغذية النار وتقويتها.

---

(١) انظر تفسير البيضاوي.

(٢) انظر: تفسير محمد عبده، وفي ظلال القرآن.

وحتماً سيكون ما حول المستوقد أناس كثيرون يستفيدون من الضوء في الرؤية ويستأمنون به من الحيوانات. والاستيقاد والإضاءة هي تسجيل متحرك فيه الأحوال المتتالية.

لوحة رقم (٣) ذهاب نورهم (والضمير هم) يعود إلى من هم حوالي الإضاءة والمنتفعين بها. والنار إذا كانت كبيرة فإن إضاءتها تصل إلى قرى بعيدة وأماكن نائية فكيف من حواليها.

إن الذي يستوقد النار واحد والذين ينتفعون من الرؤية كثيرون. وإذن فثمة لا يوجد معنى لعطف ضميرهم على المنافقين، لأن سياق الحديث هو عن مكونات الفيلم الذي يمكن أن يُعادَ في كل زمان ومكان وفي عيني كل رَاءٍ وفي وضوح كل مُتوسِّم.

وهنا أيضاً المعنى حقيقي ولا مجال لتفسير النور بالإيمان في هذا الموضع بالذات - كما قد ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين[١].

لوحة رقم (٤) شدة الظلام في عيون الرائين وهو عدم قدرة شبكية العين على التكيف ما بين تقلصٍ شديد في إضاءة كثيفة واتساع حدقة العين في غياب الضوء الغياب المفاجىء. وهنا يدخل التلوين والتعتيم في إظهار فنية اللوحة.

لوحة رقم (٥) وأضيف إلى هؤلاء الحيارى في الظلام الشديد الذي قد عقب الإضاءة الشديدة: انسدادُ السمعِ وانحباسُ اللسان والعمى. وهؤلاء الناس قد بلغوا في التيه والحيرة حداً لا يستطيعون معه الرجوع إلى معاشهم وأعمالهم. وهو التفسير ذكره الرازي في «مفاتيح الغيب».

---

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ص١٣.

إنَّ حال هؤلاء الناس الذين يمكن أن يكونوا في أي زمان ومكان[1] وأن يضاف إليهم كل أنواع البلايا - إذ أن الله على كل شيء قدير - كما جاء عقب التشبيه الثاني في الآية التي تلت - هو الفيلم الذي يشبه مثل المنافقين.

وهكذا يكون تعريف المنافقين الذين يجهل الإلمام بأحوالهم من قبل المسلمين حتى أن الرسول ﷺ قد بلغ في الألمعية والفراسة ما بلغ إذ يقول فيه ابن رَوَاحة:

لو لم يكنْ فيه آيات مبينةٌ كانت بداهتُهُ تُنبِيكَ عن خَبَرِهِ

يقول عنه رب العالمين: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۝٤﴾ [المافقون] بفيلم مستمد من الحياة يمكن أن يوجد في كل بيئة وفي كل زمان. وأن الضمائر جميعاً في الآية لهي ضمائرُ الناس الذين يمكن أن يكونوا مادة الفيلم، ولا مكان لتأول الضمائر بأنها تعود للمنافقين - كما ذهب الكثيرون - إذ من البدهي أن لا يُعَرَّفَ المنافقون بالمنافقين، وإنما يُعَرَّفُ المجهول والخَفِيُّ من خلال المعلوم والجلي. وواضح أن وجه الشبه هو أن المنافقين ينتفعون ببعض المصالح الدنيوية من خلال مشاركتهم في المغانم وهروبهم من المغارم وهو أمر لا سبيل إلى تفليته ما لم تكن الأمة كلها مستنفرة للجهاد حتى ينكشف كل فرد - ولكن هذه المنافع سرعان ما تعقب كل ألوان البلايا المختلفة. ونرى أن النار هنا للمنفعة وليست للإيمان ونباعد أن يكون أن المنافقين قد أدركوا إيماناً يصدق

---

(١) ذكر الإمام الطبري في «جامع البيان» أن هذه الصفات هي صفات المنافقين وتبعه كثير من المفسرين، وقد بين الرازي في «مفاتيح الغيب» أن هذه صفة المستوقدين إذ لا نستطيع أن نقول: إنَّ للمنافقين نوراً. =

ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة].

ومثل المنافقين يشبه صورة أخرى مستمدة من الحياة، فإن تكن الآية الأولى الأرض الصحراوية هي مسرحها ونقصد البرد مع الليل مع غياب المطر لأن المطر يطفىء النار، ولأن الإضاءة ممتدة لما حواليها لأن الأشجار والجبال تحجب الرؤية فإن مسرح الآية الثانية هي المناطق الماطرة.

مثل المنافقين = (فيلماً متكاملاً من لوحات كثر هي:)

= لوحة رقم (١) منظر مطر يصوب من السماء، وذِكْرُ السماء هنا له دلالة بيانية يفسرها فَنِّيَّةُ الصورة. ولسنا نرى ذكر السماء هنا توكيداً لفظياً لصيب - كما ذكر بعض أئمة التفسير[١] - وإنما نراها ضرورة متصلة بفنية الصورة، إذ شتان ما هما: منظر مطر يصوب ولو كان مثل عَزَالي الماء يهمي ولكن في أفقٍ منكشف ورؤية واضحة وسحاب شفاف، وهو أمر ملاحظ في بعض الجهات حيث الرطوبةُ نسبتها كبيرة، ومنظر مطر يصوب وكأنه متصل بالسماء اتصالاً لا انكشاف له ولا انقطاع معه، وذلك أدعى لتكونَ السُّحبُ متصلةً والرؤية متعذرة والظلمة متصلة.

إن ذكر السماء هنا ليس ترادفاً لفظياً أو تكراراً زائداً، بل إن الاقتصاد اللغوي المكثف لهو سمة القرآن الكريم.

---

(١) بل ذهب بعضهم إلى التوكيد على أن المطر هو السماء وليس من بخار ماء البحر والأنهار كما ذهبت الحكماء بل إن هذا يرد قول الحكماء. وقد رد على استدلال الفخر الرازي هذا أبو حيان في «البحر المحيط» إذ بين أن ليس في النص ما يدل على ذلك وبين أن العرب كانت تقول: السحاب بنات البحر. وانظر في ذلك: «الكشاف» و«مفاتيح الغيب».

إن ذكر قوله تعالى (من السماء) بعد الصيِّب لهو تكثيفُ لونِ الظلمة المتصلة بصورة المطر من أعلاه، ولهو الترجمةُ الفنية لظلال هذه الصورة. وواضح أن المطر كلما كان أكثر التصاقاً بالسماء من سائر آفاقها وكلما كان أوغل في الارتفاع مع مصاحبة الظلام، كان ذلك أدعى إلى فنية الصورة وأقرب إلى المُرَاد.

لوحة رقم (٢) المنظر الأول يخيم عليه جو آخر كثيف شديد السواد كثير طبقات الظلام.

لوحة رقم (٣) المنظر الأول + الظلمات ويتخلَّلهُ الرعد (الصورة والصوت).

لوحة رقم (٤) لقطة للمناظر الثلاثة الأولى مندغمة في بعضها ويتخللها البرق.

هذه المناظر كلها هي مسرح الأحداث وهي مناخ التمثيل، وتفاوته بين الرؤية والعتمة والإضاءة والتعتيم، وتداخل عناصر كثيرة متفاوتة الكثافة والسرعة والحركة والصوت.

أما لماذا قدم الرعد على البرق في النسق مع أن البرق يلوح قبل الرعد؟ إنه في مثل هذا المقام يتبين استخدام المفسرين لمعطيات عصرهم، إذ يوردون في تفسير الرعد والبرق تفسيرات شتى كلها معطيات ثقافية جاوزها العصر[1]. وما لم يكن هناك نص قرآني أو حديث للنبي ﷺ وهو الذي قد طُويت له أبعاد الزمان والمكان - فإن المسلم يجاوز المعطيات الثقافية لعصر دون آخر، حسبما تزداد الصورة وضوحاً، ويقطع

---

(١) أحكام القرطبي وتفسير الخازن وتفسير الطباطبائي والجلالين.

العقل البشري أشواطاً على طريق النضج والتفسير العلمي.

إن علينا أن نبدأ من حيث انتهى الناس ونتفرس فيما كشف المسلمون الأولون بصفاء نفوسهم واستعدادهم وأن نتجاوز عن تصوراتهم التفسيرية إذا توافر الوضوح الأكثر والتناسق الأكبر. من هنا كان البيانُ عملية نامية تظل دائمةَ الحركة والغنى والتطور حتى توظف في خدمة النصوص توظيفاً جمالياً، فتكشف أبعاداً ما كانت لِتُفْهَمَ إلا على مستويات من النظر والتدبر جديدة. وهو المنهج الذي عَلَّمَ عليه شهاب الدين الخفاجي حين قال: «فننظر في أقوالهم، ونتأمل المأثور عنهم، ونسلط عليه صافي الذهن، ونرهف له ماضي الفكر، فما وجدناه موافقاً للبرهان وسليماً على السَّبْر، اعترفنا بفضيلة السبق فيه، وأقررنا لهم بحُسْنِ النهج لسبيله، وما خالف ذلك وباينه اجتهدنا في تأويلهِ وإقامةِ المعاذير فيه، وحملناه على أحسنِ وجوهه، وأجمل سبله، إيجاباً لحقهم الذي لا ينكر، وإذعاناً لفضلهم الذي لا يجحد»[1].

إن الرعد والبرق يحدثان في وقت واحد (تقريباً) نتيجة احتكاك سحابتين إحداهما سالبة الشحنة وأخرى موجبة. والماء في أحواله المتعددة وبخاصة بعد التبخر يكون كثير التأين، وعند الاحتكاك يَحدثُ تفريغُ كهربائي يُحدِثُ صوتاً وشرارة كبيرة قد تمتد، ولأن سرعة الصوت هي دون سرعة الضوء (٣١٤م/ث) والضوء ١٨٦,٠٠٠ ميل (٣٠٠ ألف كم/ث) فإن البرق يتراءى للناظر قبل الرعد. ثم إن الرعد وخاصة الرعد المتكثر من خلال عمليات الصدى لهو أدخلُ في جو التخويف، كأنَّ ظلام العين يلتقي وظلام الرهبة والوحشة. زِدْ على ذلك أن الرعد خوف

---

(١) سر الفصاحة ص١٦٨.

كله بخلاف البرق الذي يكون خوفاً ويكون طمعاً أيضاً قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴿١٢﴾﴾ [الرعد]. وعندما يحدث التفريغ الكهربائي ويحرق أناسيَّ أو دوراً أو أشجاراً ويكون مصحوباً بالرعد القوي، يُحدث من الفزع في النفوس ما يجعل أصابع القوم في آذانهم تقلل من خلخلات الطبقات الهوائية. وإذا كانت الأنامل وحدها هي التي تدخل الآذان، إلا أن المجاز المرسل هنا كان أبلغ من الحقيقة بسبب حرص القوم على أن يَحْموا طبلات آذانهم بكل ما يستطيعون من جهد وسد فراغ، وهو أقرب لأن تكون الأصابع لا الأنامل هي التي تجتهد لتحول دون ذلك.

وقوله تعالى: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة] قرينةٌ إلى أن الصواعق تحرق وتقتل وهذا ناتج عن التفريغ الكهربائي. إن تفسير الصواعق بأنه شدة صوت الرعد - كما ذهب إليه بعض المفسرين[١] - لا ينسجم ونسق الآيات القرآنية، ودلالات الألفاظ. إن شدة الصوت قد تصم الآذان، وتسد السمع، وتصدع الجدران، لكنها لا تُميتُ الناس. إن هذه قرائن علمية ما كان أبينها للعالِم المتدبر حتى في تفسيره للظواهر العلمية يكون على بصيرة وهدى. إن ترتيب الرعد قبل البرق لم يكن عطفاً عشوائياً وإنما هو كلام يترجم عن الحق، ولا ينطق عن الهوى.

وقوله: «حذر الموت» ما كان أدلَّهُ على ذاتِ الحقيقة وأبعده عن التفسير المغاير.

وواضح أن البعد الزماني والنضج العلمي هو الذي أتاح لنا هذا

---

(١) تفسير الجلالين. ومن الرائع أن نجد سبقاً عند النسفي مثلاً حيث قال إنها قصفة رعد تَنْقَضُّ معها شعلةٌ من نار.

الوضوح في الرؤية، وهكذا يظل البيان يوظف في خدمة القرآن الكريم سائر معطيات الحضارة وأسرار اللغة، وخير للمفسرين الأسلاف أن لو كانوا يُحجمون عن بعض النقاط التي لا يرون دليلاً ساطعاً على ثبوتها، إذاً لكانت هذه النقاط كلوحةِ العناصرِ الكيميائية تظل تحفز العلماء إلى استهداء جديد، ونظريات أكثر شمولاً، وأوضح تفسيراً.

إن ألفاظ القرآن الكريم لهي لَبِنَاتٌ محكمة، في بناء مُحْكم، في هندسة محكمة، فإن لم يتبين لنا سِرٌّ فيها، فخيرٌ لنا أن ننبه إلى ذلك، وإن يكون هذا في التحديات التي تدفعنا إلى استشراف أفق جديد وتصور مناخات وقرائن مغايرة.

إن آيات الرعد والبرق والصواعق والمَشْرقين والمغربين كان يمر بها بعض المفسرين مروراً لا يروي غلة، ولا يُشفي صدراً، ولا يحمل على إقناع. بل إن النظريات العلمية التي كانت تتصدر أعمال باحثين مسلمين من علماء وفلكيين وجغرافيين ورحالة لم تكن لتنال حظها الأوفى من حيث التبين والوضوح في التفسير الكاشف والسياق المنسجم.

وإذا كان المشبه به مركباً وكانت الصورة تؤخذ بمجملها فمن الخطر أيضاً أن تؤخذ جزئيات المركب لتكون ماهيات مستقلة.

إن الذين ذهبوا إلى تفسير الظلمات بالكفر، والرعد بالوعيد، والبرق بالبينات[1] قد وقعوا في ربكة لم يستطيعوا أن يخرجوا منها. كيف يمكن أن يكون البرق بينات، والبرق فيه الموت؟ ثم إن هؤلاء لم يبينوا لنا كيف يكون رَجْعُ الحديث عن الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ

---

(١) انظر: تفسير الطبري والنسقي والخازن وجوهري طنطاوي وتفسير الجلالين ومحمد عبده وسيد قطب.

بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ [البقرة] وفي وقت كان تبيان معسكر الكفر قد مضى تفصيله، بينا النسق هنا هو في المنافقين[1]. الحق أقول لقد حاولت تفسير القرآن الكريم في مطلع شبابي، وكانت هذه الآية هي التي ربطت الريشة فلم تجاوزها حراكاً.

إن منهج تشبيه التمثيل في القرآن الكريم يفسر كل هذا تفسيراً يستشعر حلاوته مَنْ واقعه. وإذا كان المشبه به فيلماً متكاملاً وكانت الصورة المركبة المتميزة الهُويَّة والمتفردة الشخصية يُتعامَلُ معها كوحدة تامة، فإن المطر والظلمات والرعد والبرق لهي ألفاظ تحمل محمل الحقيقة ولا موضع للمجاز فيها. بل كيف لا تكون حقيقية، أو مستمدة من الحقيقة، إذا كان ينبغي أن تكون في قوة التجربة العلمية حاضرةً في كل زمان ومكان لتبقى الحجة بها قائمة؟! إن هذا يوفر علينا التعلق بالجزئيات التي لا تُكَوِّنُ وضوحاً.

وفي الحديث عن الفيلم الذي يشتمل على لوحات المطر المتصل بالسماء الذي يتخلله ظلمات ورعد وبرق وصواعق وصور مَنْ يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت يأتي التعليق على منظر موقف من مواقفهم - والله محيط بالكافرين. إن هؤلاء الذين يتعرضون لكل هذه الأهوال ليسوا المنافقين بالضرورة كما أنهم ليسوا بالكافرين ضرورة. إنهم بشر ممن يخلق الله، يعيشون في كل زمان ومكان. إنها صورة ممثلة مستمدة من الحياة أو هي الحياة. وهذا الأنموذج الذي عبره التشبيه عينةٌ كالعينات الإحصائية تماماً فيها كل ملامح الفطرة، علاوة على ملامح الوجود في الأمكنة والأزمنة، كي تبقى الحجة بهم قائمة يمكن التحقق

(١) انظر: مفاتيح الغيب والبيضاوي والمنار.

منها والتثبت والإعادة. في مثل هذا الموقف من الترقب والتحسب يأتي تعليقه تعالى ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة]. أما المؤمنون الذين في قلوبهم بعضُ خشيةٍ من الله - على أي ملة كانوا وأي دين اتبعوا - فهم في مثل هذه الأهوال مُشْفِقُون من الخوف لأنهم يخشون أن يكون هذا غضباً إلهياً.

حتى إنَّ الكافرين الذين يأمنون مكر الله(١) لأنهم ينسبون هذه الترتيبات إلى عشوائية الطبيعة - ليشعرون في مثل هذه الرهبة أنْ قد أُحِيطَ بهم وأنهم لا يفلتون. فكيف ثمة يكون موقف هؤلاء الناس الذين لا يأمنون مكر الله والذين يُضْرَبُ بهم مثل التشبيه مع الترقب والخوف؟ إنه لا شك كبير كبير.

وهكذا فإن ذكر الكافرين هنا جاء في جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب لأنها تعليق خارجي على نسق الفيلم وتحرك لوحاته ومناظره. وقد تَنَبَّه إلى ذلك الإمام البيضاوي في تفسيره إلى تقرير هذا الرأي.

ويستمر الفيلم في الحركة: إنّ أجواء المطر والظلمات والرعد والبرق والصواعق والرهبة الضافية وتحسب الموت تضع الناس في موقف من يريد خلاصاً ويطلبه بأي ثمن. فإذا أضاء لهم البرق - وهو ليس ضوء برق عادي - إنه ضوءٌ شديد اللمعان يكاد يخطف الأبصار - وهنا لا ينبغي التعلق بأن يكون البرق مما يُرى في البيئة إذ أن قوة هذه الظواهر

---

(١) قال تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف]. وهنا يتضح قيمة تفسير القرآن بالقرآن، وهو أمر قد سبق إليه الأسلاف وواضح في تفسير الإمام الطبري وهو المنهج الذي ينادي به في المحدثين الدكتورة عائشة عبد الرحمن في التفسير البياني للقرآن الكريم وأمين الخولي في فن القول.

ودرجاتها نسبية كما هي قوة الإبصار والسمع وتحمل الذبذبات والضغوط ودرجات الحرارة - مشوا فيه إلى حيث المغاور أو الكهوف أو جذوع الأشجار، وإذا أظلم عليهم وقفوا وقفةَ الترقب والحيرة. وإن أراد الله تعالى أن يتم صور التنكيل والسخط بهؤلاء أذهب سمعهم وأبصارهم فكانوا في مسلسل لا يُحسدون عليه، فهو قدير على كل شيء.

وإذن يكون مثل المنافقين في اضطراب نفوسهم وفي ترقبهم وتحسبهم من غضب الله أشد هولاً حتى من الكافرين الذين يستوي لديهم الوعد والوعيد - وهذا هو ما يحكيه الفيلم الذي يُكَوِّنُ المشبه به.

قوله تعالى: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور].

يُقَرِّبُ الله تعالى الحقائق والماهيات من خلال التشبيهات وضرب الأمثال. إن المثل على المثل يكون الدليل ويكون ذلك بإقامة قناطر شبه على كليهما ويكون حشرهما على صعيد واحد ينال فيه الخفي جلاء والغامض وضوحاً. وإن هذا ليتيح للمقارنة بين أمرين من طبيعة واحدة ونوع واحد. إن مثل الحياة الدنيا هو كمثل الماء الذي يؤول إلى حصيد. وكأنَّ العبرة في الحالين هي موضع التشابه، أمَّا تبيان ماهية الحياة من حيث هي خلايا وأنسجة وبلازما وفسيولوجيا وروح فليس مسلسل الماء هو الدليل عليها. وإذن تكون الأمثال مستويات تفسر ركناً معلوماً وجهة معينة، وتزيد المؤمن تعريفاً دون إدراك لحد الأمر على سبيل العلم والإحاطة لأن العقل قاصر ولأن بُعْدي الزمان والمكان يحتويانه ولا يحتويهما.

إن الله نور السماوات والأرض   الكاف

ومثل هذا النور   = فيلماً معيناً هذه لوحاته:

لوحة رقم (١) المشكاة وهي الأنبوبة في القنديل.

لوحة رقم (٢) المشكاة فيها مصباح وهو الفتيل المُتَّقد.

لوحة رقم (٣) الفتيل في زجاجة شفافة تشبه الكوكب الدري نسبة إلى اللؤلؤ في صفائه ولمعانه.

وهنا نلاحظ أن قوله تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ۝٣٥﴾ [النور] زيادة شرح وتفصيل في سياق عام فهي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب.

لوحة رقم (٤) المصباح وقد اتَّقد بزيت من شجرة زيتون مباركةٍ لا شرقية ولا غربية.

لوحة رقم (٥) صورة زيت يكاد يشتعل في درجات الحرارة العادية.

وهنا نتبين أن ليس بالضرورة أن تكون القوة الزيتية أو الصفات الزيتية كما هي زيت الدنيا، إذ أن الله تعالى قادر على أن يُعيدَ تشكيل الماهيات والصفات وخصائصها الفيزيائية والكيميائية.

وهذه إيماءة بيانية إلى أن شجرة الزيتون التي ضُربَ زيتها مثلاً ليس ضرورة أن تكون من شجر الدنيا، بل إن قوله: لا شرقية ولا غربية ليؤكد أن هذا غير شجر الدنيا في صفاته وقوة اشتعاله. وإذا أخذنا بالتفسير العلمي لكروية الأرض وأن كل بقعة هي مشرق ومغرب في الوقت ذاته، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن]

لنجد أن ذات التفسير ينسجم أيضاً، إذ أن قوله تعالى: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ ٣٥﴾ [النور] ينبغي أن يكون بقعة على الأرض تكون في ذات الوقت شرقاً وغرباً، بمعنى أن لو كانت الشجرة على الأرض لصح أن تكون شرقية وغربية في الوقت ذاته، وهو رفدٌ لتفسير كروية الأرض.

إن التشبيه الممثل، وإن استمد عناصره من الحياة، إلا أنه ليس ضرورياً أن يكون حياة. وقد وجدنا أن الليل الذي تتهاوى كواكبه صورة متخيلة وإن كانت عناصرها من الحياة. وانسجاماً مع هذا التصور فإننا نرى رأي مَعْمر والحسن بأن هذه الشجرة من شجر الجنة، ولا عبرة في توهين الرازي في «مفاتيح الغيب» لذلك بقوله: وهذا ضعيف لأنه تعالى إنما ضرب المثل بما شاهدوه. ونحن نقول: إن هذه صورة متخيلة يستطيع الإنسان أن يتخيلها من خلال شبه عناصرها في المدركات البيئية، وهذا في الواقع يغنينا عن كثير من تأولات كثير من أسلافنا المفسرين والبلاغيين ممن ذهبوا في مثل نور الله تعالى كُلَّ مذهب فقالوا: هو مَثَلُ نعتهِ في قلب المؤمن. وقالوا: نور الإسلام، وقالوا: هي قلب النبي ﷺ وما أُلقيَ فيه من النور[1]. وإن الشجرة المباركة هي ذات النبي ﷺ لأنه من أرض الحجاز التي لا تميل إلى الشرق ولا إلى الغرب[2]. وإنها أرض الشام[3] لأنها معتدلة المناخ.

---

(١) تفسير الطبري، والجمان ص١٤٠ وانظر طائفة من هذه الأقوال في تفسير الرازي، ونجد تفسيراً فلسفياً كما أثر عن أبي علي بن سينا، وتفسيراً صوفياً عن أبي حامد الغزالي، بل وتفسيراً رمزياً كما أثر عن كعب الأحبار. وانظر الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري.

(٢) المثل السائر ج٢ ص١٢٧.

(٣) الكشاف والبحر المحيط والنسفي والبيضاوي والجواهر.

إن الزيتونة المباركة ليست بالضرورة أن تكون من شجر الدنيا، بل إنها ليست منها لأنها تغايرها في الخصائص والصفات، وهي أن تكون من شجر الجنة كما روي عن عكرمة والحسن أولى[1] وذلك أكثر انسجاماً ومنهج التشبيه في القرآن الكريم. وقال الحسن: هذا مثل وليست من شجر الدنيا إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية[2].

لوحة رقم ٦: منظر النور الحاصل من اجتماع هذه الهيئات جميعاً.

لوحة رقم ٧: منظر النور وقد ضوعفت قوته وشدة إضاءته.

وإذا كان هذا ممكناً فنياً من حيث فن التصوير الحديث والتحكم فيه وهو إشارة إلى تطور فنون الإضاءة سابقة - فإن الله تعالى قادر على أن يُكثرَ صفاءه وإضاءته إلى ما لا نهاية من حيث القوة وشدة الإضاءة. ثم إن الربط بين آيتي النور والمساجد كان في الإيحاءات التي يُستحبُّ معها التنوير وقت الصلاة.

هكذا يضعنا مسلسل التمثيل من خلال المدركات الدينية وعناصرها على عتبات الحياة العلوية. وبذا تبين هذه الحياة حلقات يعرف أولها ولا نهاية لها في النسب والأبعاد والتكثر.

إن مدركاتنا لهي العتبات الأولى للتذوق والعبور والنفاذ وهذا يستدعي أن نعيش الحياة الدنيا عِلْماً وجديداً وتَفكُّراً في خَلْقِ السموات والأرض عبادة. وإن ضرب الأمثال وتنوعها في الغنى ليضع مدركاتنا في الضعف الذي يُسَلِّمُ بالعجز عن الإحاطةِ وفي ذات الوقت في الثقة التي تدفعها

---

(١) البحر المحيط وانظر الجمان ص١٤٩.

(٢) نفس المصدر وتفسير الطبري وتفسير القرطبي وتفسير الطبرسي وروح المعاني للآلوسي.

للاستشراف والفضول. وهكذا يمسح رب العالمين عن ملكاتنا وأدواتنا ومدركاتنا لنتذوق كي نبقى في اللهفة والرجاء والتشوق إلى لقاء ربنا وكشف الغطاء فنعلم الأمور علم كليات ويقين لا علم علة ومعلول.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم].

وهنا تشبيه تمثيل إذ لا يتم التشبيه إلا من خلال قراءة الآية جميعاً.

الكاف

مثل الكلمة الطيبة = فيلماً

هذا الفيلم يتكون من لوحات هي:

١- شجرة طيبة الثمر.

٢- منظر الشجرة مع تركيز عليها وهي متأودة الجذور.

٣- منظر الشجرة مع تركيز على الفروع الممتدة في السماء.

٤- مناظر متعددة للشجرة في فصول من السنة مختلفة.

وقوله تعالى: بإذن ربها، إشارة إلى أن التشبيه تشبيه تمثيل، وإن المشبه به وإن كان فيلماً تكونه عناصر الحياة ومدركاتها إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون الحياة. وإذن فالشجرة التي هذه خصائصها هي شجرة ممثلة استمدت عناصرها من المدركات وإن الله تعالى قادر على أن تكون هذه الخصائص حين يشاء. وهذا التفسير البياني يعفينا من التأول البعيد

للظفر بالشجرة في الدنيا. وما قيل في شجرة النخيل[1] ومع التقائها مع هذه الشجرة الطيبة في صفات وخصائص كثيرة إلا أننا سنظل نجزم موقنين أن ليست هي شجرة النخيل. إذ ثبات الأصل أمر لا يعرفه شجر الدنيا ولا حتى شجر النخيل. والأكل الدائم شيء لا يعرفه شجر الدنيا ولا حتى شجر النخيل، حتى الليمون الدائم الأثمار يُنوّر شهراً ويثمر آخر.

وأما أن تفسير التمر يؤكل شتاء فهو في التأول البعيد إذ دلالة الألفاظ واضحة وهي أن الشجرة هي التي تؤتي أكلها كل وقت وهو واضح وهو ما شدد عليه الفخر الرازي.

وهكذا فإننا سوف نعتم على شفافية الآيات وجمالياتها إن حاولنا أن نتعلق بما يقابل بعض ذلك في الدنيا، وقد روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الشجرة ليست من شجرة الدنيا[2] وهو أمر يَتَّسِقُ مع المنهج الذي قد ترسَّمناهُ.

أما ما يكونه وجه الشبه بين مثل الكلمة الطيبة وهذه الشجرة المباركة فلعله في الموقف الثابت الواضح الذي لا يتزحزح في الدنيا ولا ينال عَدُوٌّ منه زحزحة. إن المسلم الصادق في القول لهو في الثبات الذي لا يقلع. وقد جربت الشيوعية والتنصيرية تحويلَ مسلمين صادقين عن دينهم فما نجحوا في واحد.

---

(١) من ذلك: الكشاف وتفسير البغوي وتفسير النسفي وتفسير البيضاوي، وتفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وتفسير طنطاوي جوهري وانظر «الجمان في تشبيهات القرآن» ص١٠٠.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره، وانظر الجمان ص١٠٦.

إن الذين هم في غطاء عن ذِكْرِ ربهم آن لهم أن يتبصروا إيحاءات هذه اللطائف المباركة. وإذا كان هذا حال المسلم من حيث ثباته في موقعه فإن التأييد الإلهي لهو أكثر امتداداً وأشد تثبيتاً في الدنيا وفي الآخرة ناهيك عن الكلم الطيب يرفعه رب العالمين وتُفتح له أبواب الأرض والسماء.

ومثل الكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض كأن لم تكن. وواضح أن الشجرة هي للتمثيل وليس ضرورة أن تكون الحنظل أو الكراث أو الثوم كما ذكر ذلك الفخر الرازي. ثم إن الحنظل نباتٌ وليس شجراً. وهذا الدليل على أن كيد الكافرين ضعيف وهو يبور.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح].

مثل محمد ﷺ وصحابته من المؤمنين.

ك = (صورة نامية بداخلها عامل التدرج والبعد الزمني) وهو لذلك تشبيه تمثيل.

لوحة رقم ١ زَرْعٌ أخرج وريقاته.

لوحة رقم ٢ صورة للزرع وقد قَوِيَ.

لوحة رقم ٣ صورة للزرع وقد امتد مع تركيز على العرض.

لوحة رقم ٤ صورة للزرع وقد امتد مع تركيز على الطول والنمو الطولي.

لوحة رقم ٥ صورة هذا الزرع وقد قَرَّت به عينا صاحبه سواء أكانت

الصورة بيئية أم نفسية.

إنها صورة منتزعة من البيئة الإنسانية، قائمة في كل زمان ومكان. وإن الذي يستطيع أن يتابع نمو البذرة الأولى من مراحل الضعف ويرى رسوخ هذه النبتة وقد تأوَّدت منها الجذورُ وامتدت منها الساقُ والأوراق وضربت في العرض والغلظ - ليستطيع أن يدرك أن صحابة هذا النبي ﷺ وإن بدأوا بضعة نفر إلا أن دولتهم ستمتدُّ عَرْضاً لتفتح بلاداً كثيرة وتحوز مساحات شاسعة، وستمتد طولاً من حيث الاستمرار الزمني والامتداد التاريخي، وقد كان.

إن الذين يتفكرون في هذه التشبيهات يمكنهم أن يحصلوا منها على إيماءات كثيرة وإيحاءات ما كان أغناها. وهكذا يستطيع المؤمن المقبل على ربه أن يبصر في آي القرآن الكريم ما لا يبصره أبناء بيئته وزمانه وذلك لأن غنى الإيحاءات لا يكاد يتعلق بنهايتها خيال أو يحيط به فكر.

وإذا لم يكن من نص على أن هذه النبتة ستحور، فإنَّ هذه للحليم بشارة على أن الإسلام ودولة الصحابة هما لا شك راجعان، وأن الزبد الطافي على سطح الأحداث اليوم ينبغي أن لا يكون أكثر من طفاوة وشكان ما تتبدد ويعود الزرع قوياً مُلْتفّاً.

هذه من قناطر التشبيه ومعادلاته في كتاب الله العزيز أتينا بها على سبيل التمثيل لا الحصر، وكان لنا عند كل منها وقفةٌ مُستأنية. وإذا كان من فضل في هذا المنحى في الدراسة، فهو التعاملُ مع النصوص كما لو كانت حيوات مستقلة ضمن النسق العام، وفي إطار المنهاج العام. وإذا كنا قد شعرنا بأنَّا ظفرنا الظفر الجمالي الذي يعرفه أهله، فإن هذا يغرينا بمزيد من الدراسة والتأمل والتدبر، ومَنْ قرعَ البابَ فإنه يوشكُ أن يُفتحَ

له. نسأله تعالى أن يكون هذا في الإيمان الذي حَبَّبهُ إلينا وزَيَّنهُ في قلوبنا.

من الأمثلة السابقة وجدنا أن المعنى إذ أتى ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي بعد أن يحوج القارىء أو السامع إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف، كان امتناعه أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد. ومن المركوز في الطبع - كما يقول الإمام عبد القاهر - إن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيلهُ أحلى، وبالمزيَّةِ أَوْلى، فكان موقعه من النفس أجمل وألطف، وكانت به أَضَنُّ وأشغف[1].

ويقول الإمام عبد القاهر عن فوائد التمثيل: وإذا نقلتها (النفس) في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع، وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يُخبرُ عن شيءٍ من وراء حجاب ثم يكشف عن الحجاب ويقول: ها هو ذا فأَبْصِرْهُ تجده على ما وصفت[2].

وفي بيان تأثير التمثيل بعد ذكر الخبر - كما قد رأينا في الأخبار عن المنافقين وأعمالهم ثم رفد ذلك بالتمثيل في شبهين هما: المستوقِد والصيِّب - يقول الإمام عبد القاهر: فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر، كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه

---

(١) أسرار البلاغة ص١٣٦.

(٢) نفس المصدر ص١٠٩.

الصلاة والسلام في قوله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة] والشواهد في ذلك كثيرة والأمر فيه ظاهر[١]. إن المعنى وإن كان معلوماً يقينياً - كما يقول فخر الدين الرازي - إلا أن التمثيل بالمحسوس يفيده زيادة قوة، إذ أن إلف النفس مع الحسيات أتم من إلفها مع العقليات، فإذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتمثيل الحسي، فكأنك قد نقلت النفس من المعنى الغريب إلى القريب كقوله:

وَلَيْلٍ كَظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرَ طُولَهُ دَمُ الزِّقِّ عنا، واصطفاق المَزَاهِرِ

فإن ظل الرُّمْحِ على حال متناه، على أن التشبيه بالمشاهد المحسوس يزيد يقيناً[٢] ومثله ما قد وقفنا عنده من قوله تعالى: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد].

وعلى ذلك فاطردت أمثلة تشبيه التمثيل في القرآن الكريم. فعلاوة على العلم اليقيني كانت وجوه التمثيل في المعاني المختلفة، بل وفي البيئات المتفاوتة، تزيد النفس تعلقاً، وبه تشبثاً. وقد بينا أن لكل نفس مع البيئة الخاصة تصوراً ونكهة ومذاقاً، وسيكون لهذه الخصوصيات مع العلم مواقف ذاتية لا سبيل إلى نسيانها أو التفلت منها[٣].

---

(١) أسرار البلاغة ص١١٢.

(٢) انظر: نهاية الإيجاز ص٧٥ وسبقه أسرار البلاغة ص١١٤.

(٣) فباسط الكفين إلى الماء سيتخيل في بيئة النيل من خلال النيل وفي بيئة الفرات من خلال الفرات وفي بيئة البحيرات العذبة من خلال البحيرات العذبة وفي بيئة جمع الأمطار من الآبار. ثم إن لكل بيت طريقته في السقيا فمن كان آلف لساقية صغيرة فإن التمثيل سيكون من خلال الساقية. وهكذا الكلب والحمار والعنكبوت مما مثل به من البيئة.

التشبيه الضمني:

قال أبو تمام:

لا تنكري عَطَلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حربٌ للمكان العالي[1]

تنعقد في هذا البيت مشابهة ضمنية بين عطل الكريم من الغني وعطل المكان العالي من السيل. أما المشبه فهو دعوى غير قائمة في واقع العقل وإنما هي موقف.

وأما المشبه به فهو قضية مسلم بها، وهي أمر واقع يستطيع كل واحد في كل زمان ومكان أن يتأكد منه. وهنا يقيم الشاعر علاقات تخييلية بين الكريم والمكان العالي، وبين الغنى والسيل. وهذه العلاقات غير موجودة في واقع العقل، وإنما أقامها الشاعر من خلال رؤيته الكاشفة للعلاقات بين الأشياء، ومن خلال لمحه لأوجه شَبَهٍ لا يراها العادي من الناس. ولو سلمنا جدلاً أن القضية الأولى كانت من حيث البرهان صفراً وأن القضية الثانية كانت من حيث البرهان مئة بالمئة، فواضح أن حشر القضيتين على صعيد واحد سيتيح للقضية الأولى أن تكون خمسين بالمئة وهو مكسب كبير على أي حال. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن قلائل من الناس مَنْ يدققون في هذه الأمور ويزنونها بميزان العقل، وأن الإنسان هو عقل ووجدان معاً، علمنا أن بعض إيحاءات هذه المعاني سيبقى لائطاً بالنفس. أضف إلى ذلك أن القضية الأولى لا تولي نفسها للتجربة والكشف لأنها حالة نفسية وموقف، فإذن تبقى هذه الروابط التخييلية تُلحُّ على القارىء أو السامع ما اتَّصلَ بهذه المعاني أو وصل إليها.

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٤٥، والمثل السائر ج١ ص٢٤، انظر كتابنا: أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة ص٩٤.

من هنا تبدو مضارعة الشاعر للفيلسوف أو الصوفي من حيث الرؤية للعلاقات بين الأشياء ومن حيث استلهام تصور عام. فإذا ما كان الشاعر حزيناً مثلاً فإنه سيحيل الوجود كله حزناً وبكاء من خلال نصوص تتماسك وعلاقات تخييلية أوجهُ الشبه فيها واضحةٌ لا سبيلَ إلى ردها ودفعها.

وإذا ما كان الشاعر جَذِلاً فإن الحياة ستبدو من خلال المعادلات الجديدة سعادة تامة، وجَذَلاً، وسروراً.

وليست الحياة أياً من هذين الموقفين ولكنها المزيج من التفاؤل والألم. من هنا كان خطر الانتقائية على الوجود، وخطر اتخاذ موقف معين من خلال العاطفة وحدها، وهو ما نص عليه القرآن الكريم ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

إنهم يهيمون مع أودية العاطفة والهوى ويتخذون من الحياة موقفاً مزاجياً بينا المؤمنون تظلُّ الحياةُ في أعينهم كما ينبغي أن تكون من غير هوى ولا مزاج.

ولذلك أخرج أفلاطون الشعراء من جمهوريته المثالية لأنهم من خلال انتقائه المعاني التخييلية يُفْسِدون ما يَبْنيه الفلاسفة والحكماء من أبنية عقلية ومعان عقلية، ويظلون بمنأى عن دائرة المناقشة والحِجاج والتكذيب.

والمتنبي في قوله:

فَإنْ تَفُقِ الأنَامَ وَأنْتَ مِنهُمْ   فَإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

قد احْتَجَّ لدعواه، وَبَرّأَ نفسه مِنْ ضَعَةِ الكذب، وباعدها عن سَفَهِ المُقْدِمِ على غير بصيرة، والمتوسع في الدعوى من غير بَيِّنَةٍ[1].

ومثله قول مثقال الواسطي[2]:

ثُـمَّ حَـاوَلْـتَ بـالمثيقيـلِ تَصْغِيـ ـريْ فمـا زِدْتَنِـي سِـوى التَّعْظِيـمِ
كـالـذي طـأطـأ الشِّهَـاب لِيَخْفَـى وهــو أدنـى لـه إلـى التَّضْـرِيْـمِ

نجد الشاعر لَقفَ الكرةَ وأعادها على غريمه عبر أوجه شبه أحالت المعنى إلى ضده عبر مشبه به لا سبيلَ إلى نقضه. وفي هذا يقول الإمام عبد القاهر: ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمثل، ولم تتصادف هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه، إلا لأنه لم يُراعَ ما يحضرُ العين، ولكن ما يستحضر العقل، ولم يُعْنَ بما تنال الرؤية، بل بما تعلق الروية، ولم ينظر إلى الأشياء من حيث تُوعَى فتحويها الأمكنة، بل من حيث تَعِيها القلوبُ الفطنة[3].

وفي بيان فضل المعاني التخييلية وامتداد التفاوت فيها، وافتراقها عن المعاني العقلية يقول الإمام عبد القاهر: إن الاشياء المشتركة في الجنس المتفقة في النوع تستغني بثبوت الشبه بينها وقيام الاتفاق فيها عن تعمل وتأمل في إيجاب ذلك لها وتثبيته فيها، وإنما الصنعة والحذق، والنظر الذي يلطف ويدق في أن تجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربقة، وتعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة... ولا يقتضيان ذلك إلا من

---

(١) أسرار البلاغة ص١١٠، والمثل السائر ج١ ص٢٨.
(٢) نفس المصدر ص٣٨.
(٣) أسرار البلاغة ص١٣٨.

جهة إيجاد الائتلاف في المختلفات[١].

ويضيف الإمام عبد القاهر قوله: ولم أرد بقولي: إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها، وإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضلَ، ولذلك يُشبه المُدَقِّقُ في المعاني بالغائصِ على الدر[٢].

ويقول: «فإذا مُدَّت الحلبات لجري الجياد، ونُصبت الأهداف لتعرف فضل الرماة في الأبعاد والسداد، فرهانُ العقول التي تستبق، ونضالها الذي تمتحن قواها في تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط. ولن يبعد المدى في ذلك ولا يدق المرمى[٣]. وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يُبْدعَ ويزيد، ويبدي في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مُضْطَرَباً كيف شاء واسعاً، ومدداً من المعاني متتابعاً ويكون كالمغترف من عد لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهي. وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المدانى قيده ثم هو في الأكثر يسرد على السامعين معانيَ معروفة، وصوراً مشهورة، ويتصرف في أصول وهي إن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد، ولا تربح ولا تفيد، وكالحسناء العقيم، والشجرة الرائقة لا تمتع بجني كريم وهذا قول من قال: «خير الشعر أكذبه» فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بأن ينحلَ الوضيعَ صفةً من الرفعة هو منها عارٍ، أو يصف الشريف بنقص وعار. وإنما لأن

---

(١) أسرار البلاغة ص١٣٦.

(٢) نفس المصدر ص١٣٩.

(٣) أسرار البلاغة ص١٣٦.

الصفة إنما تمد باعها وتنشر شعاعها ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانُها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل[1] ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف والنعت والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض[2].

وبهذا يكون التمثيل الضمني كما يقول الإمام عبد القاهر: ... وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المُشْئم والمُعْرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والدار مجتمعين[3]؟!

وأمثلته في الشعر كثيرة من ذلك قول أبي تمام:

وَطُولُ مَقَامِ المَرْءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ ... لِـديْبَـاجَتَيْـهِ فـاْغْتَـرِبْ تَتَجَـدَّدِ
فـإنّـي رَأَيْـتُ الشَّمْـسَ زِيْـدَتْ مَحَبَّةً ... إلى الناس أنْ ليستْ عليهمْ بِسَرْمَدِ[4]

وقوله:

نَقِّل فُؤادَكَ حيث شئت من الهوى ... مـا الحُـبُّ إلا للحبيـب الأوَّلِ

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٥١.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) نفس المصدر ص١٣٦.
(٤) نفس المصدر ص١١٨.

كَمْ مَنْزِلٍ في الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفتى   وحنينُــــه أبَــداً لِأوَّلِ مَنْــزِلِ[1]

وقوله:

وَإذا أرادَ اللهُ نَشْــــرَ فَضيلـــةٍ   طُـويتْ أتاحَ لها لِسَانَ حَسُودِ
لـولا اشتعالُ النَّارِ فيما جاورت   ما كان يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ العُودِ[2]

وقوله:

لا تُنكروا ضَـرْبي لـه مَنْ دونَه   مثلاً شَرُوداً في النَّدى، والبَاس
فـالله قـد ضَـرَبَ الأقَـلَّ لِنُـوْرِهِ   مَثَـلاً مِـنَ المِشْكَـاةِ والنِّبْـرَاسِ[3]

وقول ابن الرومي:

كُـلُّ امْـرِئٍ مَـدَحَ امْـرَأً لِنَـوَالِـهِ   وأطـالَ فيـه، فَقَـدْ أسَـاءَ هِجَـاءَهُ
لـو لـم يُقَـدِّرْ ثَـمَّ بُعْـدَ المُسْتَقَـى   عِنْدَ الـوُرودِ لَمَـا أطَالَ رِشَـاءَهُ[4]

وقوله:

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَـدِيقِـكَ مُسْتَفَـادٌ   فـلا تَسْتَكْثِـرَنَّ مِـنَ الصِّحَـابِ
فَــإنَّ الـــدَّاءَ أكثــرُ مــا تَــرَاهُ   يَكُـونُ مِـنَ الطَّعَـامِ أو الشَّـرَابِ[5]

وأما منهج القرآن الكريم في التشبيه الضمني فهو تشبيه مئة بالمئة من التوكيد، ومن ثَمَّ فإن المشبه به الذي يأتي ضمناً لا يخسر من قوته شيئاً،

---

(١) أسرار البلاغة ص١١٢.
(٢) نفس المصدر ص١٠٨.
(٣) أسرار البلاغة ص١٠٥، المثل السائر ج١ ص٢٣.
(٤) المثل السائر ج١ ص٢٤.
(٥) نفس المصدر ص٢٥.

بل يكاد يكون التوكيد اللفظي والمعنوي للمقدمة الأولى. إنَّ البشر من خلال مواقفهم مختلفون ومن ثم فإن مقدمة كل واحد في التشبيه الضمني لهي دعوى قد تكون عامة وقد تكون شخصية أو قومية أو نسبية. إن علم الناس بالقضايا المختلفة لهي جزئية لأنهم لا يمتلكون بُعْدي الزمان والمكان. وجائز أن يقوم الشاعر بمدح سيف الدولة مثلاً ويرفعه إلى السماء من حيث مجاوزة الإطراء ثم يتكشف له فيما بعد ما يسوء. فأين ثمة تكون المقاييس والأحكام؟

إن الله تعالى الذي يحيطُ بالمكان والزمان ليتنزَّلُ بالمقدمات تنزلات الحق الذي لا جَمْجَمَةَ فيه، وإذاً فإن مقدمات التشبيه الضمني بالقرآن لهي أحكام وتقرير. وإذا كان المشبه حكماً فإن المشبه به لا يناله شيء من النقصان وقد حشر مع المشبه على ذات الصعيد، إنه زيادة الشرح والإيضاح والقوة تماماً كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس].

فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها كما يقول أبو هلال العسكري - عن الزيادة فيها، لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول ابتداء[1]، ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس]. فزادها شرحاً وقوة لأن مَنْ يخرج النار من أجزاء الماء، وهما ضدان، ليس بمنكرٍ عليه أن يُعيدَ ما أفناه[2].

---

(١) كتاب الصناعتين ص٢٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

هذا لدى المسلم المصدق المستيقن، أما الكافر والملحد والدهري فسيكون تصديقهُ بالمقدمة الأولى تصديقاً مَشُوباً بالتلكؤ والتردد ولكن المشبه به سيكون من الوضوح الذي لا يستطيع معه إلا التسليم والإذعان.

ومن التشبيه الضمني في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

هنا شَبَّه رَبُّ العالمين ضمناً مُغتابَ أخيهِ المسلم بمن يأكلُ لحمه وهو جيفة، وإذا كان الناس لا يناقشون في كراهية المشبه به، فعليهم أن يُسَلِّمُوا بكراهية المشبه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان].

هنا شبه رب العالمين ضمناً الصوت المنكر بأصوات الحمير. وإذا كان المشبه به في الوضوح بما يسلم به ولا يناقش، فينبغي أن يسلم بالمشبه.

ونلاحظ أن هذا النمط من التشبيه الضمني يكون في المواقف سواء من حيث التصديق أو عدم التصديق أو من حيث مقاييس الأخلاق وضوابط الشخصية.

الغموض الفني:

وإذا كان من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيْلُه أحلى، وموقعه من النفس ألطف - أفيلزم هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً - مشرفاً له وزائداً في فضله؟ فالجواب كما يقول الإمام عبد

من ذلك قول أبي تمام:

خُلُقٌ أَطَلَّ مِنَ الرَّبيعِ كَأَنَّهُ ... خُلُقُ الإمَامِ وَهَدْيُهُ المُتَيَسِّرُ[(1)]

فخلق الإمام (المأمون) أصلٌ يستقي منه الربيع ويحكي أخلاقه، ومن يكون الأصل ومن يكون الطارىء المأمون أم الربيع؟ وهنا تتضح المغالاة في قلب التشبيه وتغييره عن أصله.

ومن ذلك قول البحتري في مدح المتوكل (من وصف البركة):

كَأَنَّها حِينَ لَجَّتْ في تَدَفُّقِها ... يَدُ الخَلِيفَةِ لمَّا سَالَ وَادِيها[(2)]

يدُ الخليفة المشبه به وجريان البركة المشبه، فمن يكون الأصل ومن يكون الطارىء؟ إنها انتقائية الشعراء!

ومن ذلك قول القاضي التنوخي:

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهُ ... سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ[(3)]

كأن السنن هي الأصل والنجوم درع، وعكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة بالنور. قال ﷺ: «أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها»[(4)].

---

(1) المثل السائر ج3 ص122.
(2) المصدر ذاته ص127.
(3) سر الفصاحة ص229، وأسرار البلاغة ص207.
(4) أسرار البلاغة ص209.

القاهر: إني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب، وإنما أردت القدر الذي يحتاج في نحو قوله: فإن المسك بعض دم الغزال، فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تَشُقَّهُ عنه[1].

وأما التعقيد فإنما كان لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله تحصلُ الدلالةُ على الغرض حتى احتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيلة إليه من غير الطريق، كقول المتنبي:

ولذا ٱسْمُ أَغْطِيَةِ العُيُونِ جُفُونُها مِـنْ أَنَّهـا عَمَـلَ السُّيُـوفِ عَـوَامِـلُ

وإنما ذم هذا الجنس لأنه يُحْوِجُكَ إلى فكرٍ زائد على المقدار الذي يجب في مثله[2]. وإنما يزيدك الطلب فرحاً بالمعنى وأنساً به وسروراً بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلاً، فأما إذا كنت معه كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به[3].

التشبيه بالمقلوب:

ومن استطالة الدعوى في اتخاذ المواقف المبالغة، والمغالية، الزعم أن الصفة في المشبه هي الأصل، وأن المشبه به إنما هو فرع يستمد منها، ويتكىءُ عليها.

---

(١) أسرار البلاغة ص١٢٨.
(٢) نفس المصدر ص١٢٩.
(٣) نفس المصدر ص١٣٠.

ومن ذلك قول أبي طالب الرَّقي:

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُـكِ والظَّـلامُ كَـأنَّـهُ ... يَومُ النَّوى، وَفُؤادُ مَنْ لم يَعْشَقِ[1]

وقول ابن بابك:

وَأرْضٍ كـأخـلاقِ الكَـرِيـمِ قَطَعْتُهـا ... وقد كَحَلَ الليلُ السِّمَاكَ فَأَبْصَرَا[2]

فأصبح الكريم الطارىء أصلاً، والأرض التالدة فرعاً.

ومثله ما كتب الصاحب إلى القاضي أبي الحسن (الجرجاني):

يا أَيُّها القَاضِيْ الذي نَفْسِي له ... مَـعَ قُـرْبِ عَهْـدِ لِقَـائِـهِ مُشْتَـاقَـهْ
أهْـدَيْـتُ عِطْـرَاً مِثْـلَ طِيْـبِ ثَنَائِـهِ ... فَكَـأنَّمَـا أُهْـدِيْ لَـهُ أخْـلاَقَـهْ[3]

فأخلاق أبي الحسن أصيلة وطيب العطر طارىء.

وقد تبينا أن التشبيه في القرآن الكريم كان معادلات متساوية تساوي ركبتي البعير، ولا غرو في ذلك، فإن آيات القرآن الكريم كانت معادلات بين النص المسطور وبين النص المنظور، معادلات بين العوالم الإلهية وبين المدركات البيئية. إنها عبور للحقائق والأسرار والغيب ومقاصد الشرع عبر قناطر اللغة من المجاز والتشبيه وتصريف الأمثال وسرد القصص وسوق العبر والدعوة إلى النظر والتأمل والاستدلال.

---

(١) نفس المصدر ص٢١٠.
(٢) نفس المصدر ص٢١٣.
(٣) أسرار البلاغة ص٢١٦.

الاستعارة:

التشبيه من حيث اكتماله ضربان:

١- تشبيه تام: وهو ما ذكر فيه المشبه والمشبه به.

٢- التشبيه المحذوف: وهو ما ذكره فيه أحد طرفي التشبيه ويسمى «استعارة»[١].

والاستعارة: لغة مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً[٢] وعَرَّفها أبو الحسن الرماني فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة[٣] والجمهور على أنها مجاز لغوي بمعنى أنها لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة[٤].

مثال: قال المتنبي في وصف سيف الدولة:

ولم أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَحْرُ نَحْوَهُ ولا رجلاً قامَتْ تعانقُهُ الأُسْدُ[٥]

لو تأملنا لفظة البحر هنا وسألنا: هل لفظة البحر هنا هي ما تدل عليه

---

(١) تلخيص المفتاح ص٢٩٥ والتعريف للسكاكي.

(٢) نفس المصدر ص٧٧.

(٣) سر الفصاحة ص١٣٤.

(٤) التفتازاني على التلخيص ص٢٦٩ وهو تعريف الاستعارة عند البلاغيين الغربيين انظر: The Lively Rhetoric, P. 235.

(٥) أسرار البلاغة ص٢٨٢.

في أصل اللغة؟ بكلام آخر: هل البحر في البيت هو مجتمع الماء؟ وإذا كان كذلك فهل يمشي البحر؟ وما ثمة يكون المعنى. أما أن البحر يمشي فذلك لا مِرَاءَ فيه فالبحر يأخذ من اليابسة باستمرار، والأنهار تأخذ من اليابسة. وها هي الموانىء الحديثة تصنع في البر ثم يلحق بها البحر. ومن حيث النحو فإن السياق يصح أن لو مشى البحر أم لم يفعل. وإذاً يبقى شيء فوق النحو يقرر معنى البيت ألا وهو البيان.

ترى هل أراد المتنبي أن يقول إنني لم أر أحداً قبلي مشى مجتمع الماء نحوه؟ وواضح أن ذلك لا يفي بتصور محكم.

وإذاً يكون البحر هنا شيئاً آخر غير ما وضعت له لفظة البحر في دلالة اللغة. إن لفظة البحر هنا مجازية وتعني الرجل الكريم.

إن مبدأ الاقتصاد في اللغة يحتم أن تواجه الثروة اللغوية من المفردات كل ألوان الجدة وإلا لاقتضى كل معنى جديد لفظة جديدة، وهذا ما لا سبيل إليه. وإذن تلجأ اللغات إلى الاستعارة. فاستعار المتنبي لفظة البحر بدلالتها التي قد وضعت له في أصل اللغة وهو مجتمع الماء الكبير، واستخدمها في بنائه استخداماً فنياً. إن البحر يمنح القريب أسماكاً ولآلىء وأملاحاً ويرسل للبعيد سحائب. إنه مثل أعلى في الجود.

لقد نظر المتنبي في ممدوحه فأراد أن يتلطف للتعبير عنه بشيء فيه صفة الجود ظاهرة لا سبيل إلى دفعها، فحين أراد أن يقول من مشى **الكريم** نحوه، قال من مشى **البحر** نحوه. وواضح أن **البحر** هنا مجازية بمعنى الكريم، وهي المشبه به في الكرم. والذي يحدد مجازية اللفظة هو السياق وطبيعة المقام وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر وخفي حركته التي

هي كالخَلْس وكمسرى النَّفَسِ في النَّفْس[1].

وبعد هذه الاستعارة للفظة للدلالة على الكريم تعود اللفظة لتظل تدل على البحر من حيث هو مجتمع الماء الكبير. ولأنه قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به فالاستعارة تصريحية[2].

ولفظة الأسد هنا هي مجازية أيضاً إذ لا معنى أن تقوم الأسد من حيث دلالتها في أصل اللغة وهي السباع في تقبيل سيف الدولة. وواضح أنه أريد بالسباع هنا قادة سيف الدولة الشجعان. فاستعيرت لفظة الأسد لتحقق الشجاعة فيها بوضوح لتؤدي معنى جديداً يقرره المتنبي في بنائه الفني. وفيما سوى هذا الاستخدام الخاص الذي أخرج اللفظة عن حقيقتها فإن لفظة الأسد تعود لتؤدي دورها الذي قد اصطلحت عليه في اللغة.

وواضح أن العلاقة بين الشجعان والأسد هي المشابهة وإن قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

مثال:

قال الحجاج بن يوسف الثقفي:

«إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى» وذلك بسبب من تخلفهم عن بيعة عبد الملك بن مروان[3].

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٨٣.
(٢) تلخيص المفتاح ص٢٩٥.
(٣) المثل السائر ج٢ ص٩٨.

إن لفظة أينعت في هذا السياق أن لو وضعت فيما ينبغي أن توضع فيه من حيث حقيقة اللغة لكانت ثقلت. والمعنى في أصل اللغة: إني لأرى رؤوساً قد ثقلت، وواضح أن العلاقة بين الثقل واليناعة هي المشابهة. وهكذا حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

إن الثمرة إذا أينعت تكون على وشك السقوط، ومن ثم فهي في أعلى صفة الوهي والتهافت أكثر وضوحاً، كما أن البحر أكثر دلالة على الكرم، والأسد أكثر دلالة على الشجاعة.

أما ما يذهب إليه من إجراء الاستعارة في الرؤوس وأنها المشبه والثمار هي المشبه به المحذوف والمكنى عنه بشيء من لوازمه وهو أينعت فيتنافى وفلسفة المجاز في اللغة. إن اللفظة تستعار من حيث مدلولها في حقيقة اللغة لتؤدي معنى خارجاً عن الحقيقة في سياق معين ودلالة معينة ثم تعود بعد ذلك لتمارس وظيفتها في حقيقة اللغة. لفظة رؤوس ليست هنا مجازية بل هي أوردت مورد الحقيقة وإذن فلا استعارة فيها. يقول الإمام عبد القاهر: الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه. (دلائل ص٤٥).

وقد أكد هذا المعنى «القزويني» حيث قال: «ودليل أنها مجاز لغوي: كونها موضوعة للمشبه به لا للمشبه»[١].

وضياء الدين بن الأثير حين قال: إن الاستعارة هي ما ذكر فيه المشبه به دون المشبه[٢].

---

(١) تلخيص المفتاح ص٢٦٩.
(٢) المثل السائر ج٢ ص٧١.

ويقول الإمام عبد القاهر: «اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في ذلك الأصل[1].

وينبغي أن يكون مُسَوِّغٌ لاستخدام الاستعارة في اللغة حتى يَفْضُلَ المجازُ الحقيقةَ. وقد عَرَّفَ أرسطو الاستعارة بأنها قوة وضع الأشياء تحت المجهر وقال: إن الاستعارة سمة العبقرية، ذلك لأنها تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً كما يقول الإمام عبد القاهر[2]. ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، وإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مُبِيْنَةً، والمعاني الخفية بادية جلية[3]. وهي موضع لا يتبين سره إلا من كان ملتهب الطبع، حاد القريحة[4]. وكقول الإمام عبد القاهر: فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزاً أو وحياً وكناية وتعريضاً وإيماءً إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر، ومن يرجع من طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض، ويصل بها إلى الخفي[5].

والاستعارة تكون في الاسم مثل: كان الشباب مطية الجهل[6].

والكلام في أصل اللغة: كان الشباب طريق الجهل.

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٩.

(٢) نفس المصدر ص٤١.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) دلائل الإعجاز ص٢٩٣.

(٥) نفس المصدر ص٢٩٦.

(٦) أسرار البلاغة ص٤٦.

طريق: المشبه.

مطية: المشبه به.

وواضح أن المطية أقرب إلى الوضوح بسبب من كونها في الأحياء والاستعارة تصريحية.

وتكون في الفعل مثل:

أخبرتني أسارير وجهه بما في ضميره[1].

وأصل الكلام في اللغة: دلتني.

الدلالة: المشبه.

الإخبار: المشبه به.

ويفضل الإخبار الدلالة بفضل انتمائه إلى الإنسان الذي ينقل الخبر، فهو فيه فضل حياة، على سبيل الاستعارة التصريحية.

وفي الحديث: «خيرُ الناس رجلٌ مُمْسِكٌ بِعِنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هَيْعَةً طار إليها»[2].

وأصل الكلام في اللغة:

كلما سمع هيعة ذهب إليها.

ذهب: المشبه.

---

(١) أسرار البلاغة ص٥٣.

(٢) نفس المصدر والصفحة، تلخيص المفتاح ص٢٧٥.

طار: المشبه به.

ويفضل المشبه به المشبه بسبب من اتصاله بالطيور وهو أمر واضح الحياة والخفة على سبيل الاستعارة التصريحية. ومثل قول المتنبي:

نَثَـرْتَهُـمُ فـوقَ الأُحَيْـدِبِ نثـرةً كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهمُ[1]

الكلام في أصل اللغة: فرقتهم.

فرقتهم: المشبه.

نثرتهم: المشبه به.

ويفضل نثرتهم فرقتهم في أن النثر فيه قوة القبض ثم قوة التفريق، على سبيل الاستعارة التصريحية.

الاستعارة من حيث وجه الشبه: عقلي وتحقيقي.

أ- الاستعارة العقلية:

وهي الاستعارة التي تقوم على مشابهة ويُهتدى إليها بإعمال العقل كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف].

شبه الإسلام بالنور:

الإسلام: المشبه.

النور: المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة بين الإسلام والنور هي شبه عقلي.

---

(١) أسرار البلاغة ص٥٤.

وكقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة].

شبه الدين بالصراط.

الدين: مشبه.

الصراط: مشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة بين الدين والصراط شبه عقلي.

أصول الاستعارة العقلية(١):

١- أن يؤخذ الشبه بين الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة، مثل: استعارة النور للإيمان، والظلام للكفر.

٢- أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة إلا أن الشبه عقلي مثل قول النبي ﷺ: «إيّاكم وخَضْراءَ الدِّمَنِ» المشبه «المرأةُ الحسناء في المَنْبِتِ السوء».

المشبه به: خضراء الدمن على سبيل الاستعارة التصريحية ومما لا يكون الشبه فيه عقلياً قولنا في أصحاب رسول الله ﷺ «مِلح الأنام» وهو مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ أصحابي كمَثَلِ الملح في الطعام لا يصلح الطعام إلا بالملح». قالوا: فكان الحسن البصري رحمه الله يقول: فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع. فأنت تعلم - كما يقول الإمام عبد القاهر - أن لا وجه ههنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية(٢).

٣- تشبيه المعقول بالمعقول: مثال قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتًا

---

(١) أسرار البلاغة ص٦١.

(٢) نفس المصدر ص٦٤.

فَأَحْيَيْنَاهُ﴿١٢٢﴾ [الأنعام].

من حصل له العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزل على النبي ﷺ كأنه إنما وجد الحياة[1].

خالي الذهن من العلم	الميت
المشبه	المشبه به (شبه عقلي)
من حصل له العلم	وجد الحياة
مشبه	مشبه به (شبه عقلي)

ب- الاستعارة التحقيقية: كقول الشاعر:

لدى أسد شاكي السلاح مُقَذَّفِ.

يقصد الرجل الشجاع. والاستعارة يتحقق معناها حساً[2].

والاستعارة من حيث كونها مفردة أو متخيلة ضربان:

١- المفردة: وهي استعارة لفظة بدل لفظة كقوله ﷺ: «خير الناس رجل ممسك بِعِنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعةً طار إليها».

فاستخدم طار بدل ذهب أو أسرع.

٢- المتخيلة: وهي تخيل صورة جديدة والاستعانة بها في إلقاء مزيد من الوضوح والتفصيلات كقول أبي ذؤيب:

وإذا المَنِيَّةُ أنشبتْ أظْفَارَهَا ... ألفيتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

---

(١) أسرار البلاغة ص٦٨، وانظر: تلخيص المفتاح ص٢٧٤.
(٢) تلخيص المفتاح ص٢٦٨.

شَبَّه المنيةَ بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة فأثبتت لها الأظفار[1].

وقول زهير:

صَحا القَلْبُ عن سَلْمَى وَأقْصَرَ بَاطِلُهْ   وَعُرِّيَ أفْرَاسُ الصِّبَا، وَرَوَاحِلُهْ

أراد أن يبين أنه ترك ما كان يرتكبه زمن المحبة من الجهل، وأعرض عن معاودته، فبطلت آلاته، فشبه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة، قضى منها الوطر، فأهملت آلاتها، فأثبتت له الأفراس والرواحل[2].

وقول النابغة:

وَصَدْرٍ أرَاحَ الليلُ عَازِبَ هَمِّهِ   تَضَاعَفَ فيه الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

أراد قوله أراح الليل عازب همه: هذا من مستعار من إراحة الراعي الإبل إلى موضعها الذي تأوي إليه[3].

وقول طُفَيل الغَنَوِيُّ:

وجعلتُ كُوري فوق نَاجِيَةٍ   يَقْتَاتُ لَحْمَ سَنَامِها الرَّحْلُ

لأن الشحم لما كان من الأشياء التي تقتات، وكان الرحل يتخونه ويذيبه، كان ذلك بمنزلة من يقتاته[4].

---

(١) تلخيص المفتاح ص٢٨٩، وانظر: كتاب البديع ص١١.

(٢) تلخيص المفتاح ص٢٩، والبديع ص٨.

(٣) البديع ص٨.

(٤) سر الفصاحة ص١٢٧، وانظر البديع ص١٠.

وقول امرىء القيس:

فَقُلْتُ لـه لمـا تَمَطَّـى بِصُلْبِـهِ   وَأَرْدَفَ أعجـازاً، وَنَـاءَ بِكَلْكَـلِ

نماذج من الاستعارة في القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم].

الأصل: يوم يكشف عن شدة الأمر.

قال رُوَيشد بن رُمَيْض العنبري:

قـد شَمَّـرَتْ عـن سـاقها فشـدُّوا   وجَـدَّتِ الحـربُ بكـم فجِـدُّوا

وهو ما استشهد به الحَجَّاجُ في خُطبته.

المشبه: شدة الأمر.

المشبه به: ساق[1].

والمشبه به يفضل المشبه فضل التجسيد على المعنوي أو فضل الكائن الحي على المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم].

٥- قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر].

---

(١) تلخيص البيان ص٣٤١.

٦- قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر].

القطمير: القشرة الرقيقة على النواة.

النقير: النكتة في النواة.

الأصل: ولا يظلمون عملاً.

المشبه: عملاً.

المشبه به: نقيراً، أو فتيلاً، أو قطمير، شيئاً - ويفضل المشبه به المشبه في كل كما يفضل الشيء الذات والمحسوس المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية.

٧- قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن].

المشبه: سنقصد.

المشبه به: نفرغ[١] على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويفضل المشبه به المشبه لأن نفرغ تفيد التوفر على هذا الأمر وحده دون غيره بينا نقصد تشمل الأمر وغيره. فأين ثمة نقصد من نفرغ من حيث قوة الدلالة.

٨- قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم].

المشبه: فارغة.

المشبه به: هواء[٢] على سبيل الاستعارة التصريحية.

---

(١) تلخيص البيان ص٣٢٢، والفلك الدائر ص١٩٦.

(٢) تلخيص البيان ص١٨٤.

وما كان مليئاً بالهواء فهو في حكم الفارغ. ويفضل المشبه به المشبه فضل الذي يحس على المعنوي. وواضح أن الهواء له وزن وحجم وهو يدير الطواحين ويسوق السفن الشراعية ويجتاح المدن والعمران إذا كانت سرعة الهواء كبيرة.

٩- قوله تعالى: ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف].

المشبه: دَلَلْنا.

المشبه به: أعثرنا[١] على سبيل الاستعارة التصريحية.

الدلالة قد تكون الجمادات كما تدل البعرة على البعير والحجر على الطريق وقد تكون في المعنويات.

أما العثور فهو أمر يتصل بالإنسان ويختص به. ثم إن العثور فيه معنى غفلة القوم كأن المعجزة كانت قاب قوسين أو أدنى ولكن أمر كشفها كان بسبب طارىء وبسيط.

١٠- قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام].

المشبه: الهدى.

المشبه به: النور على سبيل الاستعارة التصريحية.

والنور شيء محسوس يفضل المعنوي في وضوح الدلالة[٢].

---

(١) تلخيص البيان ص٢١٠.

(٢) انظر: تلخيص المفتاح ص٢٧٣.

١١- قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح].

المشبه: الهم وما كان يعانيه الرسول ﷺ من الأمور المستعصية[١].

المشبه به: الوزر (وهو ما يحمله الإنسان) على سبيل الاستعارة التصريحية.

والحمل شيء مادي محسوس ويفضل المعنوي في وضوح الدلالة.

١٢- قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۝٢٦٧﴾ [البقرة].

المشبه: ترخصوا.

المشبه به: تغمضوا على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويفضل المشبه به المشبه فضل التشخيص وهو ما يتصل بالعين وحركتها على المعنوي.

١٣- قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۝١٨٧﴾ [البقرة].

المشبه: ملازم.

المشبه به: لباس[٢] على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويفضل المشبه به المشبه فضل المحسوس المتشكل على هيئة مخصوصة المعنوي. والملازمة قد تكون جسداً وقد تكون فكراً وتعلقاً.

١٤- قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان].

---

(١) تلخيص البيان ص٣٦٨.

(٢) المثل السائر ج٢ ص١١٣.

المشبه: عمدنا.

المشبه به: قَدِمنا[1] على سبيل الاستعارة التصريحية.

والقدوم يكون بعد تراخ، كأنه قد كان يستدرجهم، وكان يمهل ولا يهمل.

المشبه: عدماً.

المشبه به: هباء منثور على سبيل الاستعارة التصريحية.

والهباء المنثور لا يساوي شيئاً ولكن المحسوس المشاهد يفضل المعنوي في قوة الدلالة والوضوح.

١٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة].

المشبه: علا وارتفع.

المشبه به: طغى على سبيل الاستعارة التصريحية.

والطغيان علو فيه معنى الغلبة والقهر والتسلط فهو إلى أن يكون صفة إنسانيةً تَحَكُّمِيَّةً أقرب[2]. وإذن فهو فضل التشخيص على المعنوي والجماد.

١٦- قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة].

المشبه: شديدة.

المشبه به: عاتية على سبيل الاستعارة التصريحية.

---

(١) الفلك الدائر ص١٩٦-١٩٧.

(٢) تلخيص المفتاح ص٢٨٠.

والعتو شدة فيها قوة وتمرد[1].

١٧- قوله تعالى: ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۝ ﴾ [الملك].

المشبه: الصوت الشديد.

المشبه به: الشهيق[2] وهو امتصاص الهواء ويكون وقت حركة نشطة للتنفس أو حلول الهواء البارد محل الهواء الساخن.

المشبه: تَنْشَقُّ.

المشبه به: تَمَيَّزُ على سبيل الاستعارة التصريحية.

التميز يكون التباين على غير ما تجانس، بينا الانشقاق يكون بين غير قطعتين متجانستين.

المشبه: التوهج والغليان.

المشبه به: الغيظ وهو سمة إنسانية على سبيل الاستعارة التصريحية.

١٨- وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ۝ ﴾ [الأعراف].

المشبه: سكن.

المشبه به: سكت[3] على سبيل الاستعارة التصريحية.

والسكوت سمة تشخيصية علاقتها بالأحياء وواضح فضلها في الوضوح

---

(١) سر الفصاحة ص١٢٧، وتلخيص البيان ص٣٤٣.

(٢) تلخيص البيان ص٣٤٠.

(٣) الفلك الدائر ص١٩٦.

والدلالة.

١٩- قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء].

المشبه: كشفنا.

المشبه به: محونا على سبيل الاستعارة التصريحية.

والكشف يكون من الريح ويكون من الظواهر الطبيعية بينا المحو سمة إنسانية. ثم إن الكشف قد لا يكون كلياً بينا المحو فيه معنى القوة وعدم مغادرة أي جزء.

٢٠- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء].

المشبه: مضيئة.

المشبه به: مبصرة على سبيل الاستعارة التصريحية.

الإضاءة تكون من الجوامد والظواهر، بينا الإبصار من سِمَات الأجسام الحية فهو أقوى في الحياة والوضوح.

٢١- قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم].

المشبه: انتشر.

المشبه به: اشتعل على سبيل الاستعارة التصريحية.

وسرعة انتشار النار أكبر من سرعة انتشار الشيب ففيه فضل الوضوح(١).

---

(١) سر الفصاحة ص١٣٤، وانظر البديع ص٣، وتلخيص البيان ص٢٢٠، والمثل السائر ج٢ ص١١٣.

٢٢- قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

المشبه: نورد.

المشبه به: نقذف[١] على سبيل الاستعارة التصريحية.

والقذف أبلغ من الإيراد، لأن فيه شدة الوقع، وفي شدة الوقع بيان القهر وهو هاهنا إزالة الباطل على جهة الحجة لا على جهة الشك والارتياب.

المشبه: يذهبه.

المشبه به: يدمغه على سبيل الاستعارة التصريحية.

والدمغ أشد من الإذهاب لأن في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس في الإذهاب. وأصله في اللغة: أصاب دماغه بالضرب وهو مقتل.

٢٣- قوله تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج].

المشبه: يوم شديد.

المشبه به: يوم عقيم[٢] على سبيل الاستعارة التصريحية.

والعقيم: التي لا تجيء بولد، والولد من أعظم النعم، وأجسم الخيرات، ولهذا قالت العرب: شوهاءُ وَلودٌ خير من حسناء عقيم. فالعُقْم أقوى في التعبير عن السخط والشدة، وهو سمة تتصل بالأحياء.

---

(١) تلخيص البيان ص٢٢٨.
(٢) البديع ص٣.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات].

المشبه: غير الممطرة.

المشبه به: العقيم على سبيل الاستعارة التصريحية.

والعقم سمة الكائنات الحية وهو أوضح.

٢٥- قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ۝٣٧﴾ [يس].

المشبه: نُخْرِج.

المشبه به: نسلخ على سبيل الاستعارة التصريحية.

والسلخ تجسيد ويكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض، وهو لذا أقوى من الإخراج وهو مما يشترك فيه الحي وغيره من الظواهر(١).

٢٦- قوله تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۝١١﴾ [الزخرف].

المشبه: أظهرنا.

المشبه به: أنشرنا(٢) على سبيل الاستعارة التصريحية.

والنشور أبلغ في الدلالة لأنه انبعاث لما كان قد مات ولا سبيل إلى إحيائه، وأما الظهور فيعني: أن لا كبير جهد أكثر من الكشف والإظهار.

٢٧- قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ۝٧﴾ [الأنفال].

---

(١) تلخيص البيان ص٢٧٤، سر الفصاحة ص١٢٧، تلخيص المفتاح ص٢٧٨.
(٢) تلخيص البيان ص٣٠٠.

المشبه: الحرب.

المشبه به: الشوكة وهو حد السلاح على سبيل الاستعارة التصريحية.

وحد السلاح أبين وأوضح من المعنوي لأنه محسوس.

٢٨- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

المشبه: كثير.

المشبه به: عريض على سبيل الاستعارة التصريحية.

والعرض أقل وحدة في الأبعاد والمساحات والحجوم فإذا كان العرض عريضاً فإن آفاق الاتساع لهي أكبر بكثير جداً. إن طريقاً طولها عشرة ملايين كيلو متراً قد لا تزيد في العرض على خمسة أمتار فترى ما يكون سَعَةُ المساحة ذات العرض العريض؟

٢٩- قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير].

المشبه: انتشر.

المشبه به: تنفس على سبيل الاستعارة التصريحية.

والتنفس أمر يتصل بالأحياء فهو أقوى دلالة[١].

٣٠- قوله تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

المشبه: أزعجوا.

المشبه به: زلزلوا على سبيل الاستعارة التصريحية.

---

(١) سر الفصاحة ص١٢٧.

والزلزلة أشد من الإزعاج علاوة كونها لفظة مصوتة.

٣١- قوله تعالى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ۝٢٥٠﴾ [البقرة].

المشبه: أنزل.

المشبه به: أفرغ على سبيل الاستعارة التصريحية.

والإفراغ إنزال يفيد سعة الشيء وكثرة انصبابه(١).

٣٢- قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ۝١١٢﴾ [آل عمران].

المشبه: وضعت.

المشبه به: ضربت(٢) على سبيل الاستعارة التصريحية.

والضرب وضع فيه قوة وضغط وتثبيت كضرب النقود وضرب الخيمة.

٣٣- قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ۝١٨٧﴾ [آل عمران].

المشبه: غفلوا عنه.

المشبه به: نبذوه وراء ظهورهم(٣) على سبيل الاستعارة التصريحية.

والنبذ فيه معنى الإغفال المتعمد مع سبق الإصرار، ومن ثم فهو أقوى وضوحاً في الدلالة.

٣٤- قوله تعالى: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا

---

(١) تلخيص البيان ص١٢٠.

(٢) نفس المصدر ص١٢٥.

(٣) نفس المصدر ص١٢٦.

وَءَاخِرِنَا ﴿١١٤﴾ [المائدة].

المشبه: سروراً.

المشبه به: عيداً على سبيل الاستعارة التصريحية.

والعيد يشتمل على السرور علاوة على لم شمل القريب والبعيد، الكبير والصغير.

٣٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام].

المشبه: ينتقصون.

المشبه به: يخوضون على سبيل الاستعارة التصريحية.

الخائض يطأ على غير بصيرة، ومن ثم فالخوض أكبر في الدلالة على الجهل المطبق من ينتقصون. إذ التنقص قد يعني الفهم وقد يعني عدمه لكن تغيير النفس هو المهم، بينا الخوض يدل على جهلهم بآيات الله تعالى تماماً.

٣٦- قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف].

المشبه: خطأ.

المشبه به: عوجاً على سبيل الاستعارة التصريحية.

والاعوجاج حسي مشاهد والخطأ معنوي، ففضل المشبه به المشبه من حيث الوضوح العملي والدلالة التطبيقية.

٣٧- قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود].

المشبه: مُعِين.

المشبه به: ركن على سبيل الاستعارة التصريحية.

والركن مشاهد محسوس بينا المعين يكون حسياً ومعنوياً وهو أضعف. وإذن يفضل المحسوس الكلي المحسوس الجزئي.

٣٨- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

المشبه: ممسوكة.

المشبه به: مغلولة على سبيل الاستعارة التصريحية.

والغلول علاوة كونه سمة إنسانية فيها عامل التصميم والإرادة فهي أكبر دلالة على النفور من الإمساك[1].

٣٩- قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

المشبه: ليمسّنهم أو يريهم أو يسمعهم.

المشبه به: لنذيقنهم على سبيل الاستعارة التصريحية.

والذوق له فضل على غيره من الحواس لأنه أسرع إلى الإدراك وأقدر على التمييز. فالإنسان إذا رأى شيئاً ولم يعرفه مسه، وإذا مسه ولم يعرفه شمه، وإذا شمه ولم يعرفه ذاقه.

٤٠- وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف].

المشبه: غطينا.

---

(١) انظر: سر الفصاحة ص١٢٧، وتلخيص البيان ص٢٠٠.

المشبه به: ضربنا على سبيل الاستعارة التصريحية.

والضرب تغطية مع قوة وتثبيت.

٤١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف].

يقول أبو هلال العسكري: ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح منه. وحقيقة القرض هنا أن الشمس تسقط عليهم وقتاً يسيراً ثم تغيب عنهم، والاستعارة أبلغ، لأن القرض أقل في اللفظ من كل ما يستعمل بدله من الألفاظ، وهو دال على سرعة الارتجاع. والفائدة أن الشمس لو طاولتهم بحرها لصهرتهم، وإنما كانت تمسهم قليلاً بقدر ما يصلح الهواء الذي هم فيه، لأن الشمس إذا لم تقع في مكان أصلاً فسد[1].

المشبه: تنالهم بشيء يسير.

المشبه به: تقرضهم على سبيل الاستعارة التصريحية.

والقرض العطاء الحسن الذي يرد.

٤٢- قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف].

المشبه: يوشك.

المشبه به: يريد[2] على سبيل الاستعارة التصريحية.

والإرادة أمر يتصل بالحياة وبخاصة الإنسان فهو أقوى في الدلالة والوضوح.

---

(١) كتاب الصناعتين ص٢٨٢، وانظر تلخيص البيان ص٢١٠.

(٢) تلخيص البيان ص٢١٦.

٤٣- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۝١٨٧﴾ [البقرة].

المشبه: الشعاع.

المشبه به: الخيط على سبيل الاستعارة التصريحية.

والخيط مادي محسوس بينا الشعاع طاقة. وواضح أن المادي يفضل الطاقة من حيث الدلالة والوضوح.

روي أن عَدِيَّ بن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في الآية وحمله على ظاهره. فقد روي أنه قال: لما نزلت هذه الآية أخذت عقالاً أسود وعقالاً أبيض فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت، فلم أتبين، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنَّ وسادَكَ لطويلٌ عريض إنما هو الليل والنهار»[1].

٤٤- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف].

المشبه: أصل.

المشبه به: أم[2] على سبيل الاستعارة التصريحية.

٤٥- ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران].

٤٦- قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ۝٢٤﴾ [الإسراء].

---

(١) أسرار البلاغة ص٢٩٧ وحديث عدي في تفسير الطبري للآية في البخاري ٩٦/٢، ومسلم ١٥٦/٥، وانظر تلخيص البيان ص١٢٠.

(٢) البديع ص٢، وتلخيص البيان ص١٢٢.

المشبه: جانب.

المشبه به: جناح على سبيل الاستعارة التصريحية.

٤٧- قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء].

المشبه: الفنون والأغراض.

المشبه به: الأودية على سبيل الاستعارة التصريحية.

وإنما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض(١).

٤٨- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ].

المشبه: غطاء.

المشبه به: اللباس على سبيل الاستعارة التصريحية.

وواضح فضل اللباس على الغطاء من حيث الزيادة في التغطية على نحو مرسوم وتفصيل واضح. وكأن ذلك إشارة إلى اضطراد الظواهر المرتبطة بالنواميس الكونية.

٤٩- قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

المشبه: صنوف.

---

(١) المثل السائر ج٢ ص٩٧، وانظر تلخيص البيان ص٢٥٩.

المشبه به: لباس على سبيل الاستعارة التصريحية.

فضل اللباس على الصنوف فضل المحسوس على المعنوي.

٥٠- قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان].

المشبه: تغيرت (أي أن وجودهم وعدمهم واحد من حيث سيرورة الحياة وأسسها).

المشبه به: بكت(١) على سبيل الاستعارة التصريحية.

والبكاء يفضل التغير من حيث أنه سمة حياتية فيها الاستشعار بالفقد.

٥١- قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه].

المشبه: حبسة.

المشبه به: عقدة وهو مادي محسوس، تصريحية.

٥٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة].

المشبه: اقتران.

المشبه به: عقدة، تصريحية.

والعقدة تكون للمادي المحسوس بينا الاقتران يكون للمادي والمعنوي.

٥٤- قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

---

(١) تلخيص البيان ص٣٠٣ وجوه مختلفة للتفسير.

المشبه: وضعت.

المشبه به: ضربت[1] تصريحية. وفيه قوة وتثبيت.

٥٥- وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران].

المشبه: عهد.

المشبه به: حبل مادي، محسوس، تصريحية.

٥٦- قوله تعالى: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران].

المشبه: وراءكم.

المشبه به: أعقابكم[2]، مجسد، تصريحية.

٥٧- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران].

المشبه: نجوة.

المشبه به: مفازة[3]، مادي، محسوس، تصريحية.

٥٨- قوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام].

المشبه: ما وراءهم.

---

(١) تلخيص البيان ص١١٥.

(٢) نفس المصدر ص١٢٥.

(٣) نفس المصدر ص١٢٦.

المشبه به: دابرهم، تصريحية.

ودابرة الفرس، وجمعها دوابر، ما يلي حافره من خلفه[1].

٥٩- قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۝٣٠﴾ [يوسف].

المشبه: تغلغل إليها.

المشبه به: شغفها، تصريحية.

أي أصاب شغافها وهو غشاء قلبها[2].

٦٠- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۝٤٤﴾ [يوسف].

المشبه: أخلاط.

المشبه به: أضغاث، تصريحية.

الأضغاث جمع ضغث وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض[3].

٦١- قوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ [الإسراء].

المشبه: أُغْوِيَنَّهم.

المشبه به: أحتنكنَّهم تصريحية.

---

(١) تلخيص البيان ص١٣٦.

(٢) نفس المصدر ص١٧١.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

الاحتناك: من حنك: قاد الدابة من حنكها[1].

٦٢- قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف].

المشبه: يختلط.

المشبه به: يموج، تصريحية.

وهو أقوى في الدلالة.

٦٣- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح].

المشبه: ملائمة للسعي.

المشبه به: البساط[2]، تصريحية.

والبساط مادي محسوس.

٦٤- قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

المشبه: ترويحاً.

المشبه به: فراش، تصريحية.

فضل المحسوس على المعنوي.

المشبه: محكمة.

المشبه به: بناء، تصريحية.

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٠.

(٢) نفس المصدر ص٣٤٩.

والبناء يشتمل على الأحكام فهو فضل المحسوس على المعنوي.

٦٥- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

المشبه: ضياءً.

المشبه به: سراجاً، تصريحية.

وهو فضل المادة على الطاقة من حيث الإحساس بها ووضوحها.

هذه أمثلة على الاستعارة من كتاب الله تعالى أتينا بها على سبيل الاستشهاد لا الحصر لنتبين منهج القرآن الكريم في الاستعارة وفوائدها.

ومما في كلام النبي ﷺ من الاستعارة:

١- «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

المشبه: مقترن.

المشبه به: معقود وهو مادي محسوس على سبيل الاستعارة التصريحية.

الاقتران ربما كان معنوياً أما العقد فمحسوس.

٢- «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[١] (يعني الموت).

المشبه: مزيل.

---

(١) وفي المثل السائر: روي عنه ﷺ أنه دخل يوماً مصلاه فرأى أناساً كأنهم يُكْثرون، فقال: أما إنكم لو أكثرتم من ذِكْرِ هاذمِ اللذات لشغَلَكم عما أرى. (ج٢ ص٩٨).

المشبه به: هاذم على سبيل الاستعارة التصريحية.

والهذم مادي محسوس بينا الإزالة معنوية ومحسوسة.

٣- «البلاء موكل بالمنطق».

المشبه: مَنُوط.

المشبه به: موكل على سبيل الاستعارة التصريحية.

والتوكل والإنابة أمر يتصل بالأحياء.

٤- ورأى علياً مع فاطمة رضي الله عنهما في بيتٍ، فرد عليهما الباب وقال: «جَدَعَ الحلالُ أنف الغيرة».

المشبه: الغيرة (معنوي).

المشبه به: أنف الغيرة (وهو مجسد) على سبيل الاستعارة التصريحية والمتخيلة.

ومن أقوال الإمام علي رضي الله عنه من الاستعارة:

١- السفر ميزان القوم.

المشبه: اختبار.

المشبه به: ميزان وهو مادي محسوس تصريحية.

٢- وقوله لابن عباس: أرغب راغبهم، واحلل عقدة الخوف عنهم.

المشبه: توهم.

المشبه به: عقدة، تصريحية.

٣- العلم قفل مفتاحه المسألة.

المشبه: غموض.

المشبه به: قفل، تصريحية. مادي محسوس.

المشبه: واسطته.

المشبه به: مفتاح، تصريحية مادي محسوس.

٤- الحلم والأناة توأمان ينتجهما علو الهمة.

الشبه: قرينان.

المشبه به: توأمان (مجسد) تصريحية.

٥- وقوله لبعض الخوارج: والله ما عرفت حتى فغر الباطل فاه، فنجمت نجوم قرن الماعز.

أضاف للباطل فماً، وصفات الفم على سبيل الاستعارة المتخيلة.

٦- وقالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن عمله ﷺ وعبادته فقالت: كان عمله ديمة[1].

المشبه: دائم.

المشبه به: ديمة أي المطر الدائم في سكون وهو مادي محسوس تصريحية.

---

(١) كتاب الصناعتين ص٢٨٥. والكثير من الشواهد من القرآن والسنة وأقوال الصحابة إنما اعتمدت فيها كتاب الصناعتين وتدرجه قد اتبعت.

الاستعارة التمثيلية:

كقول الرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى[1].

وقولهم: إنك لا تجني من الشوك العنب[2] تقوله لمن لا يرجى منه خير.

وقولهم: لا تجعل الدر في أفواه الكلاب[3]. لمن لا يقدر قيمة الأمر.

وقولهم للرجل يعمل غير معمل: أراد تنفخ في غير فحم، وتخط على الماء[4].

وتقول للرجل يعمل الحيلة، حتى يميل صاحبه إلى الشيء، قد كان يأباه ويمتنع منه: ما زال يفتل في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد[5].

ومثله قول الشافعي رحمه الله:

أأنثر دُرًّاً بين سَارِحَةِ الغَنَمْ وأنثر منظوماً لراعية النَّعَمْ

وهو تمثيل حالة جديدة بحالة سابقة معروفة، فكأن الاستعارة كانت استعارة صيغة قد كانت في مصطلح اللغة لتدل على أمر معين لتؤدي معنى

---

(١) دلائل الإعجاز ص٢٨٦.

(٢) أسرار البلاغة ص١٠٦.

خاصاً في حالة جديدة خاصة ثم تعود بعد ذلك إلى موقعها في المصطلح المتعارف عليه. ولذلك كانت الأمثال لا تغير لأنها أصبحت في مثل مفردات اللغة.

الكناية:

هي لفظة أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه[1]. وقد أجمع الجميع - كما يقول الإمام عبد القاهر - على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة[2] ولا يعني هذا أن كل كلام يشتمل على أمر من هذه الأمور قد غدا أبلغ إذ العبرة في جمال كل نص كما لو كان هذا النص حياة مستقلة يقول الإمام عبد القاهر: اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد[3].

ومن أمثلته:

١- الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ والطَّـاعِنيـنَ مَجَـامِعَ الأَضْغَـانِ[4]

أبيض مخذم كناية عن موصوف وهو السيف والمخذم سريع القطع.

٢- قال عمر بن أبي ربيعة:

بعيـدة مَهْـوى القِـرْط إمَّـا لِنَـوْفَـلٍ أَبُوها وإمَّا عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ[5]

---

(١) تلخيص المفتاح ص٣٠٧.
(٢) دلائل الإعجاز ص٤٨.
(٣) نفس المصدر ص٥٠.
(٤) تلخيص المفتاح ص٣٠٧.
(٥) سر الفصاحة ص٢٧١، والمثل السائر ج٣ ص٦٠-٦١.

كناية عن صفة وهي طول العنق. لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة العنق، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، إذا كان الطوْل في عنقها يسيرا[١].

ومثله قول امرىء القيس:

وَتَضْحَى فَتِيتُ المِسْكِ فَوقَ فِرَاشِها نَؤومُ الضُّحَى لم تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

كناية عن صفة وهي ترف هذه المرأة - أي لم تنتطق لتخدم نفسها[٢].

وكذلك قوله:

وَقَدْ أغْتَدِيْ والطَّيْرُ في وُكُناتِها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوَابِدِ هَيْكَلِ

كناية عن صفة وهي سرعة الفرس. أراد أن يصف الفرس بالسرعة، فلم يقل إنه سريع، وقال: قيد الأوابد: وهي الوحوش. والمنجرد: قصير الشَّعْر والهيكل: الضخم[٣].

٣- قول الشاعر:

إنَّ السَّمَاحَةَ والمروءةَ والنَّدى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابن الحَشْرَجِ

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات، فترك التصريح بأن يقول: إنه مختص بها، أو نحوه إلى الكناية، بأن جعلها في قبة مضروبة عليه[٤] كأن هذه الصفات تنتسب إليه ويشتمل عليها.

---

(١) سر الفصاحة ص٢٧١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) تلخيص المفتاح ص٣١١.

ومثله قولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم بين برديه[1].

وقول الشاعر:

أوَ مَا رَأَيْتَ المَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ   في آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لم يَتَحَوَّلِ[2]

وهكذا يتبين أن المتكلم يريد إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلاً عليه. (دلائل ص٤٥).

ومن أمثلة الكناية في القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص]. فكنى بذلك عن النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث[3].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص]. فعبر عن الآجر بالوقود على الطين[4].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

والأرض التي لم تطؤوها كناية عن مناكح النساء وذلك من حسن الكناية ونادره[5]. وقد تكون أرض الحصون والقِلاع - فيما يراه كاتب

(١) تلخيص المفتاح ص٣١٢.
(٢) نفس المصدر ص٣١٣.
(٣) المثل السائر ج٣ ص٥٥.
(٤) نفس المصدر ج١ ص٢٦٠.
(٥) نفس المصدر ج٣ ص٦٢-٦٣.

هذا البحث.

٤- قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف].

يُقَلِّب كفيه: كناية عن الحسرة والندم.

٥- قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف].

كناية عن الإناث.

٦- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

كناية عن الحاجة إلى الخروج.

٧- قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة].

كنى عن النكاح بالحرث.

٨- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢١﴾﴾ [النساء].

كناية عن الجماع.

وفي كل ألفاظ النكاح كان القرآن الكريم يمر بها مراً كريماً بطريق الكناية.

٩- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

كناية عن المنع والإسراف على الترتيب.

ومن الكناية في أقوال رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يُكَنِّي وَيُوَرِّي:

١- قوله لأزواجه: «أَطولكُنَّ يَداً أسرعكنَّ لُحوقاً بي» فلما مات صلوات الله وسلامه عليه جعلن يطاولن بين أيديهن، حتى ينظرن أيتهن أطول يداً، ثم كانت زينب أسرعهن لحوقاً به، وكانت كثيرة الصدقة، فعلمن حينئذ أنه لم يُرِد الجارحة، وإنما أراد الصدقة[١].

٢- قوله ﷺ: «رُويدكَ سوقكَ بالقوارير» يريد بذلك النساء، فكنى عنهن بالقوارير، وذلك أنه في بعض أسفاره وغلام أسود اسمه أنجشة يحدو، فقال له: «يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير»[٢]. ويستهجن بعض المعاصرين من الحيارى وجه الشبه في هذه الكناية اللطيفة إذ أن النساء في أخبيتهن على هوادجهن وقت السفر كقوارير الطيب الملبسة بالقماش والخرز وغيره من أدوات الزينة خيفة عليها من الانكسار. والمعنى: أن أولاء لا طاقة بهن على تَحَمُّلِ مشاق السفرِ المُضْني ووعثائه.

ومن كنايات العرب:

١- ما ذكره جار الله الزمخشري بأن الأنمارية فاطمة بنت الخُرْشب سئلت عن بنيها أيهم أفضل. فقالت عمارة لا بل فلان، لا بل فلان ثم قالت: ثَكلْتُهم إنْ كنتُ أعلمُ أيهم أفضل. هم كالحَلْقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها (أي هم متناسبون في الشرف[٣] والحلقة المفرغة متناسبة الأجزاء يمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً لكونها مفرغةً مُصْمَتَةَ

---

(١) المثل السائر ج١ ص٨١ والتفتازاني على التلخيص ص٢٩٠.
(٢) المثل السائر ج٣ ص٦٤. وأنجشة لعله مشتق من النجاشي وهو ملك الحبشة.
(٣) التفتازاني على التلخيص ص٢٥١.

الجوانبِ كالدائرة).

٢- قول ابن القِبَعْثَرى للحَجَّاج وقد قال له متوعداً:

لأحملنك على الأدهم. قال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب.

أراد الحجاج بالأدهم: القيد.

وابن القِبَعْثَرَى أراد: الفرس الأسود والأبيض[١].

المجاز:

هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة والمجاز أعم من حيث أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة[٢].

وهو ضربان: مرسل وعقلي:

أما المرسل: فهو المجاز الذي استعمل لعلاقة غير المشابهة ومن أمثلته:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات].

والأيدي: هي القوة وهي سبب في القوة فالمجاز علاقته السببية.

٢- قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ ۝١٣﴾ [غافر].

الرزق مسبب عن المطر الذي ينزل من السماء فالعلاقة المسببية.

---

(١) تلخيص المفتاح ص٩٠، والتفتازاني على التلخيص ذات الصفحة.

(٢) دلائل الإعجاز ص٣٠١، والمثل السائر ج٢ ص٩٣.

٣- إذا وطئت أرض العدو فأَذْكِ العُيُونَ بينك وبينهم ولا يَخْفَ عليك أمرهم (من وصية عمر إلى سعد رضي الله عنهما).

العيون: هي الجواسيس والعين للجاسوس جزء منه على أهمية قصوى. فالعلاقة الجزئية.

٤- قال تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة].

الإصبع لا تدخل كلها في الأذن فالعلاقة الكلية.

٥- قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [النساء].

اعتبار ما كانوا يتامى/ اعتبار ما كان.

٦- قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح].

المولود الفاجر أريد به الرجل الفاجر والعلاقة اعتبار ما يكون.

٧- قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف].

والمقصود أهلها فالعلاقة المحلية.

٨- قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران].

الرحمة معنى من المعاني أطلق فيه الحال وأريد المحل. فعلاقته الحالية.

ومن أمثلته في القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٠﴾﴾ [طه].

العلاقة: الجزئية.

٢- قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة] أي: هلاله.

العلاقة: الكلية.

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة] والركعة جزء من الصلاة.

العلاقة: الجزئية.

٤- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة].

العلاقة: اعتبار ما سيكون.

٥- قوله تعالى على لسان صاحب يوسف في السجن: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف].

العلاقة: اعتبار ما يكون.

٦- قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴿٨﴾﴾ [الطلاق].

العلاقة: المحلية.

٧- قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العلق].

العلاقة: المحلية.

المجاز العقلي:

هو إسناد اللفظ إلى مُلاَبِسٍ له بتأول[1]. وله مُلابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب، وإسناده إلى الفاعل أو المفعول به إذا كان مبنياً له حقيقة، وإلى غيرهما للملابسة مجاز[2].

أمثلة:

١- قال تعالى على لسان فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا ﴿٣٦﴾﴾ [غافر].

أسند البناء إلى هامان، وهامان سبب فيه لأنه أمر الفعلة.

ومثله قولهم: هزم الأميرُ الجُنْدَ[3].

المقصود: قائد الجيش أو الفِرقة أو السَرِّيَّةَ.

٢- نهاره صائم - أسند الصوم إلى النهار لأنه زمان الصوم[4].

٣- نهر جارٍ - أسند الجريان إلى النهر لأنه مكان الماء[5].

٤- جد جِدُّهُ - أسند الفعل إلى المصدر ولم يسند إلى فاعله[6].

٥- عيشة راضية - بني للفاعل وأسند إلى المفعول به إذ العيشة

---

(١) تلخيص المفتاح ص٣٧.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) نفس المصدر ص٤١.
(٤) التفتازاني على التلخيص ص٣٧.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) نفس المصدر والصفحة.

مرضية[1]. استعمل اسم الفاعل بدل اسم المفعول.

٦- سيل مُفْعَم: بني للمفعول وأسند إلى الفاعل لأن السيل هو الذي يَفْعَمُ أي يملأ من أَفْعَمْتَ الإناء إذا ملأته[2].

استعمل اسم المفعول بدل اسم الفاعل.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء].

اسم المفعول بدل ساتر وهو اسم الفاعل.

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم].

اسم المفعول بدل اسم الفاعل وهو آت.

وَأُضيف: إنَّ جَمالَ المجاز العقلي لا يزال ينتظر المزيدَ مِن لَمْحِ وجوه الحُسْن، ولطائف البَيانِ فيه.

(١) التفتازاني على التلخيص ص٣٧.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

ثبت المصادر والتفاسير والمراجع

أ- المصادر:

☆ القرآن الكريم:

١- الآمدي أبو القاسم: الموازنة (دار المعارف بمصر ١٩٦١-١٩٦٥م).

٢- ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر (مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٩م).

٣- ابن خَلدون، عبد الرحمن: المقدمة (لجنة البيان العربي: مصر، ١٩٥٧م).

٤- ابن الزملكاني: التبيان في علم البيان (ط، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٤م).

٥- ابن سلام، محمد: طبقات فحول الشعراء (مطبعة المدني، مصر ١٩٧٤م).

٦- ابن قتيبة، أبو محمد: أدب الكاتب (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦هـ).

٧- ابن المعتز، عبد الله: البديع (لوزاك وشركاه لندن ١٩٣٥م).

٨- ابن ناقيا البغدادي: الجمان في تشبيهات القرآن (ط المطبعة العصرية بالكويت ١٩٦٨م).

٩- ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية (مطبعة البابي الحلبي مصر ١٩٦٨م).

١٠- ابن وهب، إسحق: البرهان في وجوه البيان (ط مطبعة وزارة المعارف/ بغداد ١٩٦٧م).

١١- البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م).

١٢- البلخي، أبو زيد: البدء والتاريخ (باريس ١٨٩٩م).

١٣- التفتازاني، مسعود بن عمر: مختصر المعاني (ط مطبعة البابي الحلبي بمصر).

١٤- الجاحظ، أبو عثمان: البيان والتبيين (ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨م).

١٥- الجاحظ، أبو عثمان: الحيوان (مطبعة الحلبي بمصر ١٩٣٨ - ١٩٤٥م).

١٦- الجرجاني، الإمام عبد القاهر: أسرار البلاغة (مطبعة وزارة المعارف/ استانبول ١٩٥٤م).

١٧- الجرجاني، الإمام عبد القاهر: دلائل الإعجاز (ط ٢ مكتبة القاهرة/ القاهرة ١٩٦١م)؛ (ط٢ طبعة المدني، قرأه محمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٨٩م).

١٨- الخفاجي، محمد بن سنان: سر الفصاحة (مطبعة صبيح وأولاده/ القاهرة ١٩٥٣م).

١٩- الرَّازي، فخر الدين: نهاية الإيجاز (مطبعة الآداب والمؤيد القاهرة ١٣١٧هـ).

٢٠- السجستاني، عبد الله: كتاب المصاحف (ط١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦م).

٢١- الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن (ط٢، مطبعة البابي الحلبي/ القاهرة ١٩٥٥م).

٢٢- شرح العقيدة الطحاوية (من منشورات المكتب الإسلامي بيروت ١٩٧٣م).

٢٣- الطبري، أبو جعفر: تاريخ الرسل والملوك (دار المعارف بمصر، ١٩٦٠م).
٢٤- العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين (ط٢، مطبعة الحلبي وشركاه ١٩٧١م).
٢٥- القزويني، محمد بن عبد الرحمن الخطيب: تلخيص المفتاح (ط١ مطبعة الحلبي مصر ١٩٣٨م).
٢٦- القلقشندي، أبو العباس: صبح الأعشى (مطابع كوستاتوماس مصر ١٩٦٣م).
٢٧- القيرواني، ابن رشيق: العمدة (ط٣، ١٩٦٣-١٩٦٤م).
٢٨- ياقوت الحموي: معجم الأدباء (مطبوعات دار المأمون).
٢٩- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب: تاريخ اليعقوبي (دار صادر/ دار بيروت ١٩٦٠م).

ب- التفاسير:

١- جامع البيان لابن جرير الطبري.
٢- الكشاف للزمخشري.
٣- تفسير الخازن.
٤- تفسير النسفي.
٥- مفاتيح الغيب للرازي.
٦- أحكام القرطبي.
٧- تفسير الطبرسي.
٨- تفسير الطباطبائي.
٩- تفسير ابن كثير.
١٠- تفسير البغوي.

١١- تفسير البيضاوي.
١٢- روح المعاني للألوسي.
١٣- الجواهر جوهري طنطاوي.
١٤- تفسير الجلالين.
١٥- تفسير المنار.
١٦- في ظلال القرآن لسيد قطب.

جـ- المراجع العربية والترجمة:

١- أمين الخولي: فن القول (دار الفكر العربي/ القاهرة ١٩٤٧م).
٢- توماس أرنولد: الدعوة الإسلامية (ترجمة واجتزاء محمد خالد حسين: دين الناس كافة، من منشورات وزارة الأوقاف بعمان ١٩٧٢م).
٣- د. خالص جلبي كنجو: الطب في محراب الإيمان. (الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت).
٤- د. زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة (دار القلم، مصر ١٩٦٢م).
٥- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن.
٦- د. عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم (ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٨م).
٧- عبد الرزاق نوفل: الإعجاز العددي للقرآن الكريم (دار الشعب القاهرة ١٩٧٥م).
٨- عبد الله التل: جذور البلاء (ط١ دار الإرشاد بيروت ١٩٧١م).
٩- د. عدنان الخطيب: المعجم العربي (معهد البحوث والدراسات العربية/ القاهرة ١٩٦٧م).
١٠- علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة (ط٢١، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م).

١١- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية.
١٢- محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى (دار الحمامي للطباعة ١٩٧٠م).
١٣- محمد علي أبو حمدة: أبو القاسم وكتاب الموازنة (دار العربية/ بيروت ١٩٦٩م).
١٤- محمد علي أبو حمدة: الفكر الإسلامي (جمعية عمال المطابع التعاونية/ عمان ١٩٧٤م).
١٥- محمد علي أبو حمدة: في النقد الأدبي التطبيقي (جمعية عمال المطابع/ عمان ١٩٧٦م).
١٦- د. مصطفى محمود: القرآن/ محاولة لفهم عصري (دار الشروق بيروت ١٩٧٠م).
١٧- د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي (ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٢م).

د- المراجع الأجنبية:

1- Diller, Karl C.: Generative Grammar (Rowly. Massachusetts, Newbury House Publishers, U.S.A. 1971).

2- Moore, Robert: Effective Writing (4th edition, Holt Rinehart and Winston Inc. New York, U.S.A., 1971).

3- .Moris, Alton and Others: The Modern Essay (2nd edition, Harcourt Brace and Word Inc. U.S.A., 1968).

4- Scharbach, Alexander and Singleton Ralph: The Lively Rhetoric (2nd. edition Holt, Rinehart and Winston Inc. New York, 1972).

هـ- الدوريات والمجلات والصحف:

١- مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٧/ ١٠/ ١٩٧٦م.
٢- مجلة العربي عدد ٢١٠ حزيران ١٩٧٧م.
٣- كتاب الهلال عدد ٤٢.
٤- مجلة الوعي الإسلامي عدد ١٥ حزيران ١٩٧٧م.
٥- الرأي عدد ٢٩/ ٥/ ١٩٧٦م.

كتب مطبوعة للمؤلف

١- «أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة بين الطَّائيين» (ط٢).

٢- «النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري» (ط٢).

٣- «الأمثال العامية الفلسطينية» (ط٢).

٤- «الفكر الإسلامي وطرائق النقد الأدبي» (ط٢).

٥- «في ظلال الفكر الإسلامي» (ط٢).

٦- «نحو رؤية إسلامية».

٧- «الطريق إلى الجامعة».

٨- «في النقد الأدبي التطبيقي».

٩- «ضفائر من تراثنا الشَّعبي».

١٠- «من أساليب البيان في القرآن الكريم» (ط٢).

١١- «فن الكتابة والتعبير» (ط٣).

١٢- «في التذوق الجمالي للآية القرآنية الكريمة: ﴿إنما مَثَلُ الحياة الدنيا كماء..﴾» (ط٢).

١٣- «في التذوق الجمالي لِقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ» (ط٢).

١٤- «في التذوق الجمالي للآيات العشر الأولى من سورة الإسراء».

١٥- «في التذوق الجمالي لخطبة النبي ﷺ في حِجَّة الوداع». ط٢.

١٦- «في التذوق الجمالي لخطبة زياد ابن أبيه (الخطبة البتراء)».

١٧- «في التذوق الجمالي لقصيدة أبي تمام الطائي في «فتح عمورية».

١٨- «في التذوق الجمالي لقصيدة أبي الطيب المتنبي «على قَدْرِ أهلِ

العزم تأتي العزائم»».

١٩- «في التذوق الجمالي لما اشتمل على ذكر العربية واللسان العربي المبين من آي القرآن الكريم».

٢٠- «في التذوق الجمالي لمناظرة أبي سعيد السِّيرافي وأبي بشر مَتَّى بن يونس».

٢١- «في التذوق الجمالي لسورة يوسف عليه السَّلام».

٢٢- «في التذوق الجمالي للاميَّة العرب للشَّنفرى» (ط٢).

٢٣- «في التذوق الجمالي لمعلقة امرىء القيس».

٢٤- «في التذوق الجمالي لهمزية حَسَّان بن ثابت حول فتح مَكَّةَ».

٢٥- «في التذوق الجمالي لقصيدة أبي فراس الحمداني في الأسر».

٢٦- «في التذوق الجمالي لقصيدتي أبي الطيب المتنبي: «ما لنا كُلُّنا جَوٍ يا رَسُولُ» و«ملومكما يَجِلُّ عن المَلَامِ»».

٢٧- «في التذوق الجمالي لِسينيَّة البحتري».

٢٨- «في التذوق الجمالي لسينية شوقي».

٢٩- «في التذوق الجمالي للآيات الثلاثين خواتيمَ سُورة البقرة».

٣٠- «المسجد الأقصى المبارك وما يتهدَّده من حَفْرِيَّات اليهود».

٣١- «مباحث في الهجمة اليهودية على الطابع الإسلامي لمدينة بيت المقدس».

٣٢- «الأخطبوط الصَّهيوني رأي العين».

٣٣- «الدَّاني في مهارات اللغة العربية».

٣٤- «الأردن والمعالم الثقافية».

٣٥- «في العبور الحضاري لكتاب «شرح قطر النَّدى وَبَلِّ الصَّدى» لابن هشام الأنصاري».

٣٦- «في العبور الحضاري للمكتبة الإسلامية، الكتاب الأول: القرآن

الكريم وبداية المكتبة العربية».

٣٧- «في العبور الحضاري للمكتبة العربية الإسلامية، الكتاب الثاني: كعب الأحبار».

٣٨- «موقع التوراة العزرية من رؤية المسيح عليه السَّلام ومن القرآن الكريم» (بالعربية وبالإنجليزية).

٣٩- «في العبور الحضاري للاميَّة العرب للشنَّفرى».

٤٠- «في التذوق الجمالي لنقاط التعتيم والإضاءة في قصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمورية».

٤١- «في العبور الحضاري لكتاب أسرار العربية».

٤٢- في التذوق الجمالي لعينية أبي ذؤيب الهُذَلي.

٤٣- في التذوق الجمالي لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري.

٤٤- في التذوق الجمالي لقصائد متمم بن نويرة الثلاث.

٤٥- في التذوق الجمالي لقصيدة الأسود بن يعفر.

٤٦- في التذوق الجمالي والأسلوبي لقصيدة «بانت سعاد».

٤٧- الفائق في فن الكتابة والتعبير، وتذوق النصوص، والتحرير.

٤٨- كيف تكتب بَحْثاً جامعياً.

٤٩- في التذوق الجمالي الأسلوبي واللغوي للامية العرب للشنفرى.

٥٠- دراسة معمار لامية العرب للشنفرى وقصيدة بانت سعاد على ضوء التحليل الصوتي.

٥١- في العبور الحضاري لكتاب رجائي جارودي حول الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

٥٢- في التذوق الجمالي لقصائد تأبط شرّاً وعبدة بن الطبيب.

٥٣- في التذوق الجمالي لقصائد المسيَّب بن علس وبشامة بن الغدير.

٥٤- في التذوق الأسلوبي واللغوي لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح

فهرس الموضوعات

عمورية .

Al - Muwazana (Balance) as a Critical Approach in -٥٥
Arabic Criticism.



الموضوع رقم الصفحة